عبد الرزاق بلال

مدخل إلى عتبات النص

دراسة في مقدمات النقد العربي القديم



تقديم : ادريس نقوري

أفريقيا الشرق

مدخل إلى عتبات النص

دراسة في مقدمات النقد العربي القديم

المؤلف ــ عبدالرزاق بلال

عنوان الكتاب

مدخل إلى عتبات النص

دراسة في مقدمات النقد العربي القديم

رقم الإيداع القانوني : 132/2000

ردمك : 9981-25-178-X

أفريقيا الشرق ــ المغرب

159 مكرر شارع يعقوب المنصور ــ الدار البيضاء

الهاتف : 95 25 04 - 13 98 25 ــ فاكس : 80 00 44

أفريقيا الشرق ــ بيروت ــ لبنان

ص. ب. 3176 - 11

عبد الرزاق بلال

مدخل
إلى عتبات النص

دراسة في مقدمات النقد العربي القديم

أفريقيا الشرق

الإهـــــداء

إلى الأستاذ الدكتور :

إدريس نقوري

إنســـانا...

وعالمـــا...

ومربيا فاضلا.

المحتويات

كلمــة :

عتبات النص كتاب مفتوح واسع الأرجاء، لكننا نعتبره مغلقا ضيق المساحة...

نظن أننا نحيط بكل تفاصيله وتدقيقاته ... ! ؟

ونظن أننا نجهل عنه أشياء كثيرة... ! ؟

والأليق أن نجعله موضوعا مفكرا فيه لنختبر حقيقة معرفتنا به.

تـقـديـم

«مدخل إلى عتبات النص» هو العنوان الذي اختاره عبد الزراق بلال عنوانا لمؤلفه هذا، وهو باكورة أعماله الأدبية والنقدية.

والكتاب دراسة لمقدمات مجموعة من أمهات النقد العربي القديم، تناول فيها الباحث بالفحصِ والتحليل مقدمات ذات أثر كبير في الدرس النقدي وفي المؤلفات التي توالت عبر القرون الماضية. ولاحاجة هنا إلى التذكير بأهمية المقدمة في تراثنا العربي الإسلامي ولا إلى تكرار ما قيل وكتب حولَها، فكلنا نعلم الوقع الخاص الذي تثيره في الوجدان والتصور والمكانة التي تحتلها في حياتنا الروحية والعملية منذ أن نزلت سورة الفاتحة المباركة. ونعلم جميعا الشهرة التي حظيت بها مقدمات كتب ومصادر تاريخية واجتماعية وفلسفية منها مقدمة ابن خلدون. وإن التفاتة عبد الرزاق بلال إلى هذا النوع من الخطابات الأدبية والفكرية لتعد بحق مبادرة طيبة وتوجها إيجابيا لا تخفى أهميتهما العلمية والتاريخية والثقافية. ذلك أن الباحث حرص على قراءة المقدمات الأساسية في النقد القديم وعلى الوقوف على أهم معالم وملامح البرامج النقدية والرؤى المنهجية التي تطفح بها تلك الخطابات الموازية. والكتاب بهذا الاعتبار، يعد جهدا فكريا ومنهجيا صرفه

الباحث في تتبع المقدمات وفي استخلاص فوائدها العلمية والنظرية والمنهجية والتاريخية. ومن مزايا البحث في المقدمات، أنه يلفت النظر إلى ما فيها من آراء وأفكار وإلى ما تتضمَّنه من مشاريع نظرية يسعى الناقد إلى تطبيقها والتقيُّد بها في فصول كتابه. إن بطريقة منهجية متكاملة، وإن بكيفية جزئية لا تعكس دائما طموحه النظري، والسر في هذا القصور هو أن المقدمة تمثل، في غالب الأحيان، الصورة المثالية التي يتطلع الناقد إلى إنجازها فيما يمثل الكتاب الجانب المنجز، من المثال، والمظهر العملي المتحقق من التصور النظري. وتبدو المقدمة في كثير من الأحيان وكأنها بمثابة العرض النقدي لجهود النقاد السابقين ونقد لما اعتورَ تلك الجهود من عيب أو نقص ومن ثَمَّ محاولة لتجاوز العثرات أو إحراز قصب السبق في مجال محدد مثل المجال الاصطلاحي ؛ وهذا شأن مقدمة كتاب "البديع" لابن المعتز ، ومقدمة قدامة لكتابه "نقد الشعر" على سبيل المثال، طبعًا.

إن الباحث الذي تتجه عنايته إلى قراءة ودراسة التراث الأدبي بعامة، والتراث النقدي على وجه الخصوص، يواجه صعوبات جمَّة تتمثل في لغة النقد ومصطلحاته ومناهجه وأساليب التعبير عن الآراء والمواقف الفكرية، كما تبتدئ في ضرورة الإلمام بكثير من المعارف التي تحفل بها النصوص النقدية والمقدمات التي تمهد لها، فضلا عن المعايشة التاريخية والاجتماعية التي ينبغي أن تطبع القراءة والدراسة وتجعلهما قريبتين من روح العصر الذي كتبت فيه المقدمة والكتاب ، وعن الإحاطة «بالخلفيات» الفكرية والثقافية التي تؤطر النص النقدي، وتؤثر تأثيرا مباشرا وعميقا على صاحبه وعلى رؤيته النقدية. وهذه الصعوبات

التي يصطدم بها باحث التراث وقارؤه، لا توازيها إلا مشاعر الغبطة و أمارات اللذة التي تتملك الباحث والقارئ معا وهما يصطحبان النقاد والنصوص ويغوصان في أعماق الكنوز الفنية والعلمية ذات الثراء الكبير والمتعة الفائقة.

ولا شك أن علاقة الباحث بلال بالتراث النقدي وصحبته الطويلة لنصوصه ولكبار أعلامه، من الأسباب التي حدتْ به إلى عشق النقد القديم، وإلى استكشاف ما يزخر به من متع فنية وفوائد علمية ومنهجية. لقد أثمرت قراءته لعتبات النص القديم هذه الدراسة التي لا تعدو كونَها مدْخلا أوليا. أما إذا تجاوز العتبات وربطها بالمتون وبالتحليلات العميقة التي امتدت عبر كتب كاملة، واستغرقت عدة أجزاء منها، فإن الحصيلة ستكون كتاباً كبيرا قد يتكون من عدة أجزاء، وهو المشروع الذي أتمنى أن ينجزه الباحث في مستقبل قريب. وليس ذلك عليه بعزيز.

وفقه الله وأعانه على خدمة التراث ولغتنا العربية الجميلة.

إدريس نقوري

مقدمة

إن الباحث في التراث النقدي القديم يواجهه فيض هائل من المؤلفات الجادة لعلماء كبار كانوا وما يزالون محط عناية واهتمام، والملاحظ أنه كلما تطورت مناهج وطرق البحث الأدبي، ازدادت الرغبة في إعادة النظر في بحث هذا التراث مما يسمح في كل معاودة بكشف جوانب جديدة لم يتيسر لها الظهور من قبل.

ومن خلال استعراض قائمة الأعمال والإنجازات التي قاربت هذا التراث، سواء تلك التي سلكت مناهج تقليدية أو حداثية يتبين عمق ونفاذ نظرات ورؤى أعلامه ومدى انفتاحه وقدرته على الاستيعاب والتفاعل. فمن دراسات سلكت سبيل السرد التاريخي لمراحل تطوره، إلى أخرى سلكت سبيلا موضوعاتيا تناولت فيه القضايا والموضوعات التي أثارها هذا التراث، إلى ثالثة اختارت سبيل الإصطلاح إما من خلال المؤلف الواحد أو من خلال مجموع نصوصه، إلى رابعة سعت إلى التوفيق بين هذه الإتجاهات جميعها. لكن على الرغم من أهمية وجدية هذه الأعمال فقد ظلت بعض جوانب هذا التراث بعيدة عن التناول إذ غالبا ما اكتفت هذه الإنجازات بمتون المؤلفات النقدية، وتجاوزت مقدماتها

أو جعلتها تنصهر في إطار دراسة المتن برمته. فأغفلت بذلك خطابا متميزا في نوعية كتابته وتشكله ووظائفه : إنه خطاب المقدمات : Discours Prefaciel .

وليس خطاب المقدمات هذا سوى جزء من نظام معرفي عام هو ما يطلق عليه في الاصطلاح الفرنسي Paratexte وتعني مجموع النصوص التي تحيط بمتن الكتاب من جميع جوانبه : حواش وهوامش وعناوين رئيسة وأخرى فرعية وفهارس ومقدمات وخاتمة. وغيرها من بيانات النشر المعروفة التي تشكل في الوقت ذاته نظاما إشاريا ومعرفيا لا يقل أهمية عن المتن الذي يخفره أو يحيط به، بل إنه يلعب دورا هاما في نوعية القراءة وتوجيهها.

إن الإهتمام بهذا النظام المعرفي ليس غريبا على ميدان الدراسات الأدبية، بل إنه يشكل مبحثا أساسيا في مجال تحقيق النصوص ونشرها، إذ المحقق ملزم بالعناية الشاملة بالنص بدءا من اسم صاحبه وانتهاء بصنع الفهارس ووضع الاستدراكات والتذييلات وما إلى ذلك. لكن الدراسات الحديثة وبفضل الإستفادة مما تحقق من نتائج هامة في مجال الأبحاث اللسانية والسيميائية وتحليل الخطاب أولت العتبات عناية خاصة تجعل منها خطابا قائما بذاته، له قوانينه التي تحكمه. و لا غرابة في ذلك ما دامت العتبات في حقيقتها تصير بمثابة نص مواز للمتن، ومن ثم فالواجب أن نحذر العتبات كما صرح بذلك جيرار جينيت وكما تقتضيه أدبيات القراءة.

ونظرا لأن أشكال عتبات النص كثيرة ومتنوعة، فإن الدراسة التي نقدم عليها اليوم لن تتناول إلا شكلا واحدا هو الذي يعرف عادة باسم «المقدمة» Préface. وقد اخترنا أن ينصرف جهدنا لدراسة مجموعة من مقدمات كتب نقدية تراثية تنتمي للقرنين الثالث والرابع الهجريين، أعني مقدمات كتب . طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، والشعر والشعراء لابن قتيبة، والبديع لابن المعتز، وعيار الشعر .لابن طباطبا، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر، وأخبار أبي تمام للصولي، والموازنة للأمدي، والوساطة لعبد العزيز الجرجاني.

ولاشك أن قارئ هذه المؤلفات التراثية سيقف - لا محالة - على الآتي :

أولا : أن المقدمة تمثل في هذه المؤلفات جهدا نظريا متميزا يمكن من خلال تجميعه الحصول على أسس وقواعد النظرية النقدية القديمة.

ثانيا : أن هذه المقدمات تسهم - حتما - في توجيه القراءة وتنظيمها، وبالتالي تهيء القارئ لاستقبال مشروع قيد الإنجاز، سيكون مجاله - لا محالة - متن الكتاب. وهذا يعني أن المقدمة هي نوع من التعاقد الضمني والصريح بين المؤلف والقارئ.

ثالثا : أن هذا الجهد النظري الذي يتميز بالخصوصيات التي تقدمت، كفيل بأن يعضد سلطة المقدمة فيجعلها قادرة على

إضفاء مشروعية انتماء المؤلَّف (بفتح اللام) إلى لون معرفي مخصوص.

ولأن مفتاح كل مقدمة هو حرصها على ذكر الغرض أو الدافع إلى التأليف، فقد أفردت الدراسة فصلا خاصا تبينت من خلاله أن هذا العنصر، الذي يقوم بدور المحدد والموجه لبقية عناصر خطاب المقدمة، يعكس موقفا حضاريا ومعرفيا يتمثل في كون التأليف هو في أغلبه استجابة لحتمية معرفية يتم التعبير عنها تارة بطريقة مباشرة وتارة أخرى بطريقة غير مباشرة، وهو ما يكسب المقدمة غنى وتنوعا ينعكس على أشكال الصياغة، فنميز إذن بين أصناف أبرزها : المقدمة / الرسالة والمقدمة / الحوار.

نأمل أن تفتح هذه الدراسة الباب أمام الطلبة والباحثين من أجل بحث مختلف نصوص العتبات، للإلمام الشامل بهذا الموضوع القديم الجديد مما سيكون له - ولاشك - أطيب الأثر على البحث العلمي.

مدخل

في عتبات النص

خطاب المقدمات... عتبات النص... النصوص المصاحبة... المكملات... النصوص الموازية... سياجات النص... المناص... إلخ. أسماء عديدة لحقل معرفي واحد أخذ يسترعي اهتمام الباحثين والدارسين في غمرة الثورة النصية التي تعتبر إحدى أهم سمات تحولات الخطاب الأدبي بشكل خاص، والخطابات المعرفية التي تقتسم معه إشكاليات القراءة والتفاعل والإقناع والتواصل بشكل عام.

صحيح أن الدرس الأدبي العربي ما يزال يبحث ـ وهو سعي محمود ـ عن اقرب مصطلح يتميز بالدقة والشمولية [1] لمقاربة هذا الحقل المعرفي الجديد الذي يعنى بمجموع النصوص التي تخفر المتن وتحيط به من عناوين وأسماء المؤلفين والإهداءات والمقدمات والخاتمات والفهارس والحواشي وكل بيانات النشر التي توجد على صفحة غلاف الكتاب وعلى ظهره.

---

1 ـ كانت هذه إحدى توصيات ندوة "خطاب المقدمة" التي انعقدت بكلية الآداب بأكادير يومي 11 و 12 شوال 1417 موافق 19 و 20 فبراير 1997 .

وحين نسم هذا الحقل بالجدة، فإننا لانقصد الغرابة، بل جدة الطرح والتناول وعمق التصور وبعد القصد ؛ وهي عناصر استفادت من إنجازات الدرس اللساني الحديث والدرس السميائي وتحليل الخطاب والشعرية والسرديات وفن التصوير والتشكيل وعالم الإشهار والدعاية.

إن المؤلف (بفتح اللام) أيا كان لايمكن أن يقدم عاريا من هذه النصوص التي تسيجه ؛ لأن قيمته لا تتحدد بمتنه وداخله. بل أيضا بسياجاته وخارجه. ماعدا في استثناءات قليلة منها : أن ينتمي النص إلى مرحلة الرواية والمشافهة كما في الثقافة العربية في مراحلها الأولى. أو كونه ينتمي إلى ما يصطلح عليه بـ : L'epitexte(2) وهي مجموع النصوص التي تنتظم في شكل استجوابات ومراسلات وندوات ومناظرات ومذكرات وشهادات وغيرها، مما لايسمح لها في صورتها الأولى بظهور هذه العتبات الا بعد الانتقال إلى مرحلة الطباعة والإخراج وساعتئذ تستفيد مما يصطلح عليه بالمكملات وهي ترجمة اقرب لكلمة Peritexte التي تدخل في اهتمامات محقق النصوص وناشرها واحيانا بمساعدة المؤلف نفسه. بل إن عتبات النص تساعد في فتح مغاليق المخطوطات وتساعد في قراءتها وتحديد قيمتها المعرفية والتاريخية وما إلى ذلك. "تضم المخطوطات أحيانا إلى جانب المتن تعليقات مفيدة توجد على الحاشية وملاحظات هامة تتضمنها مقدمة

---

2 - GERARD GENETTE : Seuils P:316.

الكتاب أو خاتمته، وقد نجد شيئا آخر منها على الغلاف الداخلي أو الخارجي للمخطوطة، وهذه الملاحظات تعين على تقويم آراء المؤلف وتحديد زمن المخطوطة إن لم تكن تحمل تاريخا، كما يساعد في تحديد هذا التاريخ اختيار النساخ لواحدة من العبارات التقليدية التي تلي عادة اسم المؤلف أو الاديب أو العالم، كقولهم "رحمه الله "أو "غفر الله له "أو "أطال الله عمره وأمده بالقوة" لأنها تتضمن ما إذا كان الناسخ قد خط الكتاب في زمن المؤلف أو بعد وفاته "[3]. كل ذلك يقيم الدليل على اهمية خطاب عتبات النص ويؤكد أن لا فكاك منه ومن شروطه الشكلية والمعرفية ومن وظائفه بل ومن سلطته.

1 - عتبات النص في الدرس الغربي

يعتبر كتاب جيرار جينيت "عتبات "[4] محطة رئيسية لكل عمل يسعى إلى فك شفرات خطاب عتبات النص. فقد ضم الكتاب بين دفتيه بحث كثير من أشكال هذه النصوص / العتبـات : بيانات النشر، العناوين، الإهداءات، التوقيعات، المقدمات، الملاحظات... وغيرها. وتكمن أهميتها في كون قراءة المتن تصير مشروطة بقراءة هذه النصوص ؛ فكما أننا لا نلج فناء الدار قبل المرور بعتباتها فكذلك لا يمكننا الدخول في عالم المتن قبل المرور بعتباته ؛ لأنها تقوم، من بين ما تقوم به، بدور الوشاية

---

3 ـ عبد السلام هارون : تحقيق النصوص ونشرها : ص 73 .

GERARD GENETTE : ed. Seuil Paris 87 . -4

والبوح. ومن شأن هذه الوظيفة أن تساعد في ضمان قراءة سليمة للكتاب. وفي غيابها قد تعتري قراءة المتن بعض التشويشات.

والحقيقة أن جهود جيرار جينيت في هذا المؤلف تعتبر تتويجا لإرهاصات نظرية سابقة تمثلت في :

* وجود بعض الملاحظات والإشارات السريعة للموضوع أكدت أهمية وضرورة الاهتمام به كما في "كتاب المقدمات" لبورخيص ؛ إذ لاحظ أن الدراسات الأدبية مازالت تشتكي من نقص يتمثل في عدم ظهور قاعدة تقنية لدراسة المقدمات (5) أو كما في كتاب جيرار جينيت Palimpsestes، حيث عد عتبات النص Paratexte مقوما ثانيا من المقومات الخمسة المكونة لما أسماه Transtextualité عبر نصية (6).

* تشكيل حلقات دراسية تهتم بموضوع العتبات أبرزها جماعة مجلة "أدب" الفرنسية، وجماعة مجلة "الشعرية". فقد أصدرت الجماعة الأولى عددا خاصا محوره الرئيسي "البيانات"(7). وقد ضم هذا العدد بين دفتيه مجموعة من الدراسات تهتم بتحليل البيانات باعتبارها خطابا، فقاربتها مقاربة لسانية وايديولوجية وبحثت في كيفية تحول المقدمة إلى بيان كما اهتمت بالجانب الموضوعاتي فتناول البيانات السياسية

5- J.L.BORGES : Livre de prefaces P:12

6- GERARD GENETTE :Palmipsestes . P:7-9.

7- Littérature N° 39/1980

والسينمائية. والادبية والتشكيلية. وتشترك هذه الأبحاث في تحسسها أهمية العتبات في الدراسات الأدبية والفكرية. ولم تكتف بهذه المقاربات فقط، بل صاغت مصطلحات خاصة بموضوع العتبات مثل :

(8) textes - Lisières

(9) Texes d'escorte

والملاحظ أن هذه الأبحاث ظهرت في وقت ما تزال فيه دراسة عتبات النص لم تستقر بالشكل الذي تمت فيه خلال أواخر الثمانينيات. وهي الفترة التي أصدرت فيها جماعة "الشعرية" عددا خاصا من مجلتها وكان محوره PARATEXTE (10). ولا شك أن الدراسات التي انتظمها هذا المحور كانت أكثر تطورا بفضل استفادتها من هذا التراكم الذي أسسته الجماعة السابقة، فضلا عن الأعمال الجزئية المتناثرة هنا وهناك.

* تخصيص بعض الفصول من بعض المؤلفات لمعالجة أشكال العتبات من حيث بناؤها الفني والفكري والوظيفي ؛ ومن ذلك مثلا مقدمة Jacques DERRIDA لكتابه la Dissémination المعنونة : - Hors - livre (11) التي انصرفت في معظمها للحديث عن المقدمة الفلسفية. إلى جانب مقدمة HENRI MITTERAND لكتابه Discours du Roman (12) التي عني فيها بالقوانين العامة

---

8 .. Litterature N° 39/1980 . P:16

9 .. Ibid . P:5

10 .. Poetique N° 69 /FEV 1987 . ed . Seuil

11 .. La Dissemination : P.P: 8-67

12 - Discours du roman p.p 21 - 34

المنظمة لكتابة المقدمة باعتبارها خطابا، فاهتم بالملفوظات والضمائر وتنـظيم الكلام وفق أصناف المتلقين، والعبارات / النواة، والمستوى الايديولوجي في المقدمة ووظائفها. والملاحظ أن "ميتران "كان أكثر تركيزا على المقدمات الروائية باعتبارها وثيقة حول الجنس الروائي وجنسا من الخطاب. دون أن ننسى الأعمال الكثيرة المنجزة حول العنوان باعتباره مقوما اساسيا في خطاب العتبات (13).

وإذا كنا نعترف للدرس الغربي بالسبق إلى عقلنة موضوع العتبات وتنظيمه نظريا وتطبيقا، فإن ذلك لا يمنع من وجود التفاتات عربية دقيقة في الموضوع، وجدت متناثرة هنا وهناك لكن يعوزها الجهاز النظري العام الذي يؤطر القول فيها. وحسبنا فيما تبقى من فقرات هذا المدخل أن نعمل على تقريب هذا المتناثر وجمع أطرافه عسى أن يجد فيه القارئ ما يشكل مفتاحا لتطوير القول في هذا الموضوع أملا في تلمس بصمات عربية في عتبات النص.

2 ـ عتبات النص من منظور عربي

إذا تأملنا طبيعة التأليف العربي قديما نجد أن أول ما وصلنا منه كان عبارة عن مرويات شفوية ينقلها طلبة العلم عن شيوخهم وعلمائهم. وهذه المرويات كثيرا ما أخذت طابع الحوار الذي يعتمد السوال والجواب أو طابع الصراع بين نمطين ثقافيين هما

---

13 - Voir : LEO HOEK : "la marque du titre" Mouton- 1981

- CHARLES GRIVEL : "Production de l'intérêt romanesque" Mouton 73

المشافهة الذي انتهى برجحان كفة الكتابة علي المشافهة كما في رسالة الفحولة للأصمعي التي ينقلها تلميذه أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجري : "سمعت الأصمعي عبد الملك بن قريب غير مرة يفضل النابغة الذبياني على سائر شعراء الجاهلية، وسألته آخر ما سألته قبيل موته : من أول الفحول ؟ قال : النابغة الذبياني ثم قال : ما أرى في الدنيا لأحد مثل قول امرئ القيس :

وقاهم جدهم ببني أبيهم   وبالاشقين ما كان العقاب

قال أبو حاتم : فلما رآني اكتب كلامه فكر ثم قال : بل أولهم كلهم في الجودة امرؤ القيس، له الحضوة والسبق وكلهم أخذوا من قوله واتبعوا مذهبه "[14]. أو كما في رسالة بشر بن المعتمر التي تكشف وجها آخر من وجوه رجحان كفة المكتوب عن المروي : "مر بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخزمة السكوني الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر فظن ابراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة، فقال بشر : أضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا. ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه "[15].

ومهما كانت طبيعة هذه التصانيف فإنها صارت فيما بعد تحترم بشكل مشروط أو تلقائي ما اجتمع عليه رأي العلماء في أمر التأليف لأن من صنف فقد استهدف، فإن احسن فقد استعطف وإن أساء فقد استقدف. لذلك كنت تجد حرصا دقيقا عند العلماء

---

14 ـ رسالة الفحولة : ص 9

15 ـ البيان والتبيين : 1 / 135

في تصانيفهم وعيا منهم بجسامة المسؤولية الملقاة على عاتقهم فهم فاتحة عهد جديد في تصانيف العلوم العربية، ولا سبيل لهم عن مخالفة ما عرف بالرؤوس الثمانية في التأليف التي أوردها المقريزي في كتابه المواعظ إذ قال : "إعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب وهي الغرض والعنوان والمنفعة والمرتبة وصحة الكتاب ومن أي صناعة هو وكم فيه من أجزاء وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه"[16]. فهذه العناصر الثمانية تجعل المؤلف (بفتح اللام) أهلا بالثقة والذيوع والانتشار وتمنحه المصداقية والشرعية.

وما ان عرفت صناعة التأليف تطورا حتى بدأوا يتدبرون شكلياتها التي لا تنفصل عن عمق مضامينها ومنافعها، فعرفوا الكتاب وميزوه عن السجل والسفر. وتكلموا في أنواع الكتابة ورتبة الخط واستقامة الأسطر والفصل بينها. وكانوا لا يرضون بالكتاب إلا إذا كان مختوما ومعنونا كما في قول الجاحظ : "وقد يكتب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة إلى بعض من يشاكله، أو يجري مجراه، فلا يرضى بالكتاب حتى يخزمه ويختمه، وربما لم يرض بذلك حتى يعنونه ويعظمه "[17]. يكشف

16 - المقريزي : كتاب المواعظ 3/1 ، وينظر ما نقل الجاحظ في الحيوان "ينبغي أن يعرف أنه لابد من أن يكون بكل كتاب علم وضعه أحد من الحكماء ، ثمانية أوجه : منها الهمة والمنفعة والنسبة والصحة والصنف والتأليف والإسناد والتدبير" 102/1

17 - الحيوان : 1 / 98

النص عن مكونين اثنين من مكونات عتبات النص أولهما الختم أو الخاتم، وثانيهما العنوان.

أما الختم فمعناه في معاجم اللغة وقواميسها "وضع نقش على الكتاب فتسمعهم يقولون ختم الشيء وعليه : طبعه وأثر فيه بنقش الخاتم "[18]. ومن وظائفه الحفظ والصيانة "والختم أيضا حفظ ما في الكتاب بتعليم الطينة وفي الحديث : آمين خاتم رب العالمين على عباده المومنين قيل : معناه طابعه، وعلامته التي تدفع عنه الاعراض والعاهات لأن خاتم الكتاب يصونه ويمنع الناظرين عما في باطنه "[19]. ومعنى هذا أن خاتم أو طابع المصنف على مصنفه مأمنة له من الضياع أو الانتساب المغلوط أو ما شاكل ذلك من آفات التأليف المعروفة. وكان من أعراف وقوانين ديوان الرسائل والكتابة "وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليه بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع على طرفي السجل عند طيه وإلصاقه "[20]. وبذلك عد ضروريا في المكاتبات واستحق أن يكون أحد المكونات الأساسية في العتبات.

أما العنوان فمعناه من وظيفته لأن عنوان الشيء دليله ووضعه أن يكون في بداية المصنف لأنه خير من يساعدنا في كشف

---

18 - المعجم الوسيط 218/1 .

19 - لسان العرب 163/12.

20 - ابن خلدون : المقدمة : 272

غرض المؤلف إذ كثيرا ما يحملنا إلى العلم المصنف فيه. وقديما قيل "إن العنوان مشتق من العناية، لأن الكتب في القديم كانت لا تطبع فلما طبعت وعنونت، جعل القائل يقول من عنى بهذا الكتاب ؟ ولقد عنى كتابه"[21]. وقد جرت العادة في التأليف العربي القديم أن تتغلب عناوين مؤلفات العلماء على أسمائهم أي أن العالم أشهر ما يكون بمصنفاته مما سوى ذلك.

التـوقـيـعــات

ورد في معجم المصطلحات العربية أن التوقيعات "اقتباس أو شعار قصير في صدر كتاب أو فصل منه له صلة بموضوعه"[22]. لكن القدماء لم يربطوه فقط بصدر الكتاب بل قد يكون في خاتمته. وتعد التوقيعات إحدى عناصر عتبات النص، حرص فيها العلماء على الدقة والإيجاز وعرفها ابن خلدون بقوله : "ومن خطط الكتابة التوقيع وهو ان يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة اليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطن بأوجز لفظ وابلغه "[23]. وقد جعلوها انواعا متعددة فمن ذلك التوقيعات التي تكون عبارة عن جملة كما ورد في خبر عن احدهم "رفع إلى الصاحب رقعة يذكر ان بعض اعدائه يدخل داره فيسترق السمع، فوقع الصاحب

---

21 ـ البطليوسي : الاقتضاب في شرح ادب الكتاب 190/1 .

22 ـ مجدي وهبه وكامل المهندس : معجم المصطلحات العربية 56 .

23 ـ المقدمة : 273 وينظر الاقتضاب 195 وما بعدها .

فيها : دارنا هذه خان، يدخلها من وفى ومن خان ″[24]. ومن التوقيعات مايأتي بالحرف الوحد كما في حكاية أبي منصور عن أبي نصر العتبي قال : ″كتب بعض خدم الصاحب اليه رقعة فوقع فيها فلما ردت اليه لم ير فيها توقيعا. وقد تواترت الاخبار بوقوع التوقيع فيها. فعرضها على ابي العباس الضبي فمازال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع، وهو ألف واحدة. وكان في الرقعة [فإن رأى مولانا ان ينعم بذلك فعل] فاثبت الصاحب امام فعل ألفا يعني إفعل ″[25].

ومن التوقيع ما يكون بالآية القرآنية أو البيت الشعري [26]. ومن التوقيعات ما يوجد منقوشا على مبنى معماري أو متحف أثري أو معلمة حضارية.

ولعل أهم مظاهر العتبات عند العلماء قديما ما تعلق بالمقدمة والخاتمة ؛ لما لهما من خصوصيات مميزة، ولارتباطهما بأصول دينية، تطورت فيما بعد لتأخذ أبعادا فنية وبلاغية شملت إلى جانب النص القرآني كل أصناف الخطابات. فقد تقرر أن كل عمل يجب أن يفتتح بالبسملة ويختتم بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم. مع التنصيص على ما قد يتلو الكتاب أو المصنف إن كان متعدد الأجزاء. واشترطوا في الخاتمة أن تكون حسنة جيدة بليغة هادفة لأنها آخر ما يعلق بالأسماع وربما حفظت من دون غيرها لقرب العهد بها.

---

24 ـ الكلاعي : إحكام صنعة الكلام 160-161 .

25 ـ نفسه ، 161 .

26 ـ نفسه ، 162-164 .

هذه بعض صور عتبات النص ولاشك أن صورتها الغربية تلك تعتبر المرجع الأساسي الذي اعتمده الباحثون العرب المحدثون، واستلهموه في أعمالهم فأثمرت عملية الاستلهام هذه : حلقات دراسية أخذت على عاتقها تحسس الطريق [27]. ورسائل جامعية منجزة [28]. وأخرى في طريق الانجاز. إلى جانب اعمال قليلة تيسر لها ان ترى النور مؤخرا [29]

27 ـ لقد كانت محاور النقد الأدبي التي انجزها طلبة سلك التكوين بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء خلال سنتي التكوين 85-87 تدور حول دراسة مقدمات الكتب النقدية القديمة تحت اشراف الأستاذ ادريس نفوري .

28 ـ انظر : المقدمة في التأليف النقدي القديم ... رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب ، عين الشق – البيضاء عام 1990 تقدم بها صاحب هذه الدراسة .

29 ـ انظر : «مقاربة الخطاب المقدماتي الروائي» السعدية الشادلي منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية عين الشق البيضاء. سلسلة الأطروحات والرسائل رقم6. وهذا الكتاب في الأصل مشروع رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا كان من المنتظر أن تقدمه الباحثة للمناقشة لكن فاجأها القدر المحتوم. وقد تكلفت شعبة اللغة العربية. مشكورة ـ بطبع هذا العمل ونشره.

الفصل الأول

بحث في خطاب المقدمات

1 ـ المقدمة : المفهوم والاستعمال

وردت كلمة "**مقدمة**" متداخلة مع مصطلحات أخرى، كالتمهيد، والمدخل، والتصدير، والفاتحة والمطلع والاستهلاك، والخطبة... وغيرها من المصطلحات الأخرى. غير أننا لن نجد في معاجم اللغة وقواميسها مايدلنا على الفارق الحاسم بين هذه المصطلحات، فيما عدا بعض الاستعمالات التي تبدو كأنها مختصة بحقل معرفي ما، من ذلك مثلا مصطلح "الفاتحة "الذي يكاد يختص بالدراسات القرآنية، إذ نسمعهم يقولون "فواتح السور"ويعنون بها أوائل السور، وأم الكتاب يقال لها فاتحة القرآن. ومعلوم أن العلماء قد خصوا فواتح سور القرآن الكريم بعناية كبيرة، وحاولوا تفسيرها وتقديم تخريجات متعددة بشأنها وبخاصة ماتعلق منها بالسور التي افتتحت ببعض الحروف[1].

وتكاد لفظة "المطلع" و"الاستهلال" أن تكون مصطلحات تقنية أكثر ارتباطا بالنصوص الشعرية العربية التقليدية التي درج

---

1 ـ ينظر على سبيل المثال لا الحصر : "البرهان في وجوه البيان" للزركشي . 164/1 ث :و"مناهل العرفان في علوم القرآن" للعبد العظيم الزرقاني . 227/1 وما بعدها .

فيها الشعراء على استهلال قصائدهم بذكر الديار ووصف الرحلة والراحلة قبل التخلص إلى الغرض الرئيسي. وقد خص النقد العربي قديما وحديثا هذه المطالع بالدراسة والتحليل فبحث في دلالة ورمزية المطالع وأبعادها النفسية والفنية والحضارية وغيرها[2].

أما مصطلحات "التمهيد" و "المدخل" و "التصدير" فغالبا ماترد متلازمة، ولاتكاد في معناها العام تخرج عن مفهوم المقدمة. وإن كنا نجد لدى بعضهم سعيا لتمييزها. ففي الموسوعة الفلسفية لروزنتال ترجمت كلمة Propedantique بكلمة "تمهيد" وتعني [تدريب أولي ومنهاج تمهيدي ومدخل في علم من العلوم جرى التوسع فيه بشكل منهجي وموجز والتمهيدات تسبق الدراسة التفصيلية لفرع المعرفة المطابق والمنهاج المدرسي للفلسفة يسمى أحيانا التمهيدات الفلسفية] [3]. أما "التصدير" في معجم المصطلحات العربية فقد جاء ترجمة للمصطلح الانجليزي Foreword والمصطلح الفرنسي Preface وتعني [كلمة يكتبها المؤلف في أول كتابه يعبر فيها عن ملاحظات شخصية موجهة إلى قارئ الكتاب وينتهي عادة بفقرة الشكر للاشخاص والفئات التي ساعدت المؤلف في بحثه. وقد جرت العادة أن يكتب تصدير جديد لكل طبعة جديدة لمؤلف ينص فيه على مافي الطبعة الجديدة من اختلاف عن الطبعة السابقة عليها. ولايتعدى

2- ينظر : "بناء القصيدة في النقد العربي" يوسف بكار . دار الأندلس1982
"الشعر العربي بين الجمود والتطور" عبد العزيز الكفرأوي . دار نهضة مصر
"مقدمة القصيدة العربية" حسين عطوان .دار الجيل بيروت 2 / 1987
3- الموسوعة الفلسفية : روزنتال . 141.

التصدير الصفحتين أو الثلاث. في حين أن المقدمة قد تصل إلى طول فصلين من فصول الكتابة (4).

أما المقدمة Preface فتتمتع بأهمية قصوى ضمن خطاب العتبات لاعتبارات شتى منها مايرتبط بشكلها، ومنها مايرتبط ببنائها ومنها مايرتبط بوظيفتها... الخ، لكن مامعنى المقدمة ؟

لابد من التمييز بين مستويين في المقدمة، مقدمة يمكن تسميتها بمقدمة علم وأخرى نسميها مقدمة التأليف (علما أن امكانية تحول المقدمة الثانية إلى المستوى الأول واردة باستمرار) فالأولى يمكن أن نمثل لها بكتاب ابن خلدون "المقدمة" الذي هو في الأصل جهاز نظري قد يكون سابقا أو لاحقا لكتاب العبر. ونمثل لها كذلك بالمقدمات الفلسفية التي تعرفها الموسوعة الفلسفية بالآتي : [مقدمة قصيرة لبعض العلوم. موضوعها تعرف مبدئي على مضامين هذا العلم ومشكلاته ومنهج بحثه، وتعد "مقدمة" إلى كل ميتافيزيقا تريد أن تصبح علما" التي كتبها كانط مقدمة لكتابه "نقد العقل الخالص"، وهي في الحقيقة تلخيص قصير لهذا المؤلف] (5)، اما مقدمة التأليف فهي كل نص سابق عن متنه أو لاحق له(6) قصد تقديمه للقارئ ومده بمنهج صاحبه وخطته في التأليف وقصده منه. وكثيرا ما تدخل في علاقة مع المتن المقدم له. إن المقدمة بهذا المعنى عبارة عن تعاقد ضمني أو صريح بين المؤلف وقارئه.

---

4 ـ معجم المصطلحات العربية : ص 104 .

5 ـ الموسوعة الفلسفية : 490 .

6 ـ حين نقول :"لا حق له" فإننا نشير بذلك إلى المقدمات التي تكتب عادة بصيغة الماضي وتفيد أنها كتبت بعد الفراغ من كتابة المتن . أو إلى الملاحق التي تكتب عادة في نهاية المتن تحت عنوان :"عود على بدء" أو ما شاكل ذلك والتي هي في حقيقة الأمر عبارة عن تنويع في المقدمة.
وللمزيد من الإضاءة حول هذه القضية ينظر :
- Discours du roman : P.23 . - Seuils.150

والملاحظ أن العلماء العرب قديما لم يكونوا يطلقون على مقدمات كتبهم مصطلح مقدمة بل ماتبث عنهم هو استعمال مصطلح "خطبة" للدلالة على المقدمة. فقد جاء مثلا في تعليق ابن خلكان على بعض المؤلفات قوله : [وكان العلماء يقولون "اصلاح المنطق"(ويعني به كتاب ابن السكيت) كتاب بلا خطبة، وأدب الكتاب تأليف ابن قتيبة خطبة بلا كتاب، لأنه طول الخطبة وأودعها فوائد](7). لكن ينبغي ألا ننسى أن تحقق هذا الفهم للمقدمة احتاج إلى مراحل عديدة تطورت فيها أشكال التقديم من الافتتاح بقولهم "باسمك اللهم "إلى البسملة(8) إلى اعتماد ماعرف "بفصل الخطاب"(9) ثم الحمدلة إلى أن وصلوا إلى المقدمة التي كانت تعرف باسم الخطبة. مما يفيد أن مصطلح المقدمة مصطلح لاحق في الثقافة العربية [إن المصطلح الشائع للمقدمة عند القدامى هو مصطلح الخطبة ويليه المقدمة. ووضع هذين المصطلحين نصا في بداية مقدمات الكتب كان نادرا جدا، إذ كثيرا مايكتفي المؤلف بالبسملة ثم يبدأ بعدها بالدعاء والحمد، وينتقل بعد هذا الكلام إلى موضوعه. وماتتضمنه المقدمة من معلومات أخرى بعبارة أو لفظة كثر ترددها بين المؤلفين القدامى، وهي قولهم "اما بعد" أو "بعد" مما يحملنا على القول بأن البسملة وهذه اللفظة صارت عنصرا أساسيا من عناصر مقدمات الكتب

7 - وفيات الأعيان لابن خلكان : 400/6 ، وينظر كذلك تعليق الثعالبي على مقدمة الوساطة للجرجاني في يتيمة الدهر 7/4 .

8 - احكام صنعة الكلام 55 .

9 - وتعني عبارة أما بعد انظر احكام صنعة الكلام 59 .

عند القدامى ودليل على أن الكلام الذي يبدأ بها هو مقدمة الكتاب] [10].

لقد كان المصنفون العرب واعين، أشد مايكون الوعي، بأهمية المقدمة ووظائفها وأدوارها المتميزة وسلطتها الخطابية الإقناعية، لذلك اتفق أن اجتمعت مقدماتهم على احترام كثير من القواعد التي تبدو أساسية في بناء ومعمارية المقدمة من ذلك مثلا :

1 ـ الحرص على حسن الصياغة والديباجة باعتماد الأسلوب اللطيف الأخّاد سيرا على نسق الرسائل الفنية حيث سيادة أسلوب السجع والمجانسة والمطابقة ولو لم يتعلق الامر بكتاب ادبي. وحسبك شاهدا على مانذهب إليه هذان النصان من مقدمتين لمصنفين أحدهما في الفلسفة الإسلامية، والثاني في التاريخ والعمران. يقول الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال" [أما بعد فقد سألتني أيها الأخ في الدين، أن أبث إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها. وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق، من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار، وماستفدته أولا من علم الكلام وما اجتويته ثانيا من طرف أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام. وما

10 ـ أحمد جاسم النجدي : "منهج البحث الأدبي عند العرب" 227-228 .

ازدريته ثالثا من طرق التفلسف وما ارتضيته آخرا من طريقة التصوف، وما انجلى إلي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلف، من لباب الحق وماصرفني عن نشر العلم ببغداد، مع كثرة الطلبة، ومارددني إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة...] [11].

ويقول ابن خلدون في مقدمته لكتاب المقدمة [... أما بعد فإن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتنشد إليه الركائب والرحال. وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال. وتتنافس فيه الملوك والاقبال. وتتسأوى في فهمه العلماء والجهال. إذ هو في ظاهره لايزيد على اخبار عن الأيام والدول. والسوابق من القرون الأول، تنمو فيه الأقوال، وتضرب فيه الأمثال. وتطرف بها الاندية إذا غصها الاحتفال. وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال. واتسع للدول فيها النطاق والمجال. وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال"[12] وقس على ذلك مقدمات عديدة في علوم مختلفة. فلا يعزب عن أحد سواء كان عارفا بدقائق فن الأسلوب أو غير عارف به، تسلسل فقرات النصين في ديباجية رائقة شائقة تثير الانتباه بأصوات ومقاطع صوتية تطرق السمع فتشد الانتباه.

11 ـ الإمام الغزالي : المنقذ من الضلال. ت : عبد الكريم المراق ص 22 ـ 23 ـ 24.
12 ـ ابن خلدون : المقدمة 3 ـ 4 دار الجيل بيروت .
13 ـ انظر الخبر في : كتاب الاستدراك : لابن الاثير ص 2 .

2 ـ عدم الإطالة في المقدمة ؛ فابن خلكان مثلا ينقل عن العلماء استهجانهم كتاب ابن قتيبة "أدب الكاتب "لأنه طول في خطبته/مقدمته. وينتقد ابن الأثير ابن الدهان في رسالته الموسومة "المآخذ الكندية" بقوله : "إنه أطال المقدمة، واختصر الكتاب الذي وضعت المقدمة من أجله، فكان كمن بنى دارا فجعل دهليزها ذراعا وعرضها شبرا، وكمن صلى الفريضة ركعة واحدة وصلى النافلة عشرا"(13).

3 ـ الحرص على ضرورة انسجام ما تحتويه المقدمة من معلومات مع موضوع الكتاب. وغني عن القول إن المقدمة شأن العنوان ـ تقوم باستراتيجية البوح والاعتراف، والوشاية. وفي هذا نقرأ في العنصر الخامس من رسالة ابن الدهان مأخذا نصه : "إن المقدمة لا تشاكل الكتاب، لأنه قصرها على أشياء خارجة عن الغرض المقصود"(14) وتلك خاصية أساسية وجوهرية في كتابة المقدمة خصها العلماء بفصل سموه "الإشارة في الصدور إلى الغرض المذكور"(15) وأثبتها الدرس الحديث حين قال : "تسعى كل مقدمة في وقت واحد إلى كشف نموذج الجنس الذي تتحدث عنه، وكشف نموذج قراءتها "(16) وليس هناك من سبيل إلى كشف نمودج الجنس المتحدث عنه إلا بدخول المقدمة في علاقة مع المتن المقدم له، وآنئذتقوم بدور الوشاية والبوح.

---

13 ـ انظر الخبر في : كتاب الاستدراك : لابن الاثير . ت :حفني محمد شرف. ص 2

14 ـ نفسه : 2 .

15 ـ احكام صنعة الكلام : 67 وما بعدها .

16 - HENRI MITTERAND : "Discours du roman " P.26 .

2 ـ فضاء المقدمة

تقوم المقدمة على مفارقة عجيبة قد لا تتسم بها غيرها من النصوص ؛ ذلك أنها على مستوى المكان تعتبر أول مكتوب، لكنها على المستوى الزمني تكون آخر ما يكتب. ومن تم تتأرجح الملفوظات التي تحتويها بين "ما يراد قوله" و "ما قيل" أو "ما تم إنجازه" و"ما ينتظر انجازه" فالعبارات التي تتخللها ملفوظات من قبيل : ذكرنا ـ أوردنا ـ قلنا ـ ألفنا... وما شاكلها تحلينا على أن المقدمة كتبت بعد الفراغ من كتابة المتن. في حين أن الملفوظات من قبيل :سأذكر ـ سأورد ـ مبين... الخ وهي ملفوظات دالة على الحال والاستقبال تفيد أن المقدمة كتبت قبل المتن. وفي هذه الحال غالبا ما تكون المقدمة جوابا عن سؤال حقيقي أو متخيل تلقاه المؤلف من أحدهم يستحثه على التأليف في موضوع ما أو قضية معينة. فلا يجد بدا من الاستجابة لطلبه والإدعان لرغبته، وهي عادة تكاد تهيمن على جميع المؤلفات الكلاسيكية يقول الغزالي :

"أما بعد فقد سألتني أيها الأخ في الدين، أن أبث إليك غاية العلوم، وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها... فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك، بعد الوقوف على صدق رغبتك، وقلت مستعينا بالله ومتوكلا عليه، ومستوفقا منه وملتجئا إليه [17] فملفوظات "أبث" و"ابتدرت" تفيد الحال. فيما تشير ملفوظات : "مبين" و"فاتح" مثلا في مقدمة ابن طباطبا العلوي لكتابة "عيار الشعر" إلى الاستقبال. "فهمت ـ حاطك الله ـ ما سألت أن أصفه لك من

17 ـ المنقذ من الضلال : 22 ـ 24

علم الشعر والسبب الذي يتوصل به إلى نظمه، وتقريب ذلك على فهمك والتأتي لتسيير ما عسر منه عليك، وأنا مبين ما سألت عنه وفاتح ما يستغلق عليك منه إن شاء الله تعالى "[18] ولاشك أن الاستعمال الحقيقي لفعل المشيئة يرتبط بما لم يتحقق، ونأمل تحققه. فيما أن الحمد والشكر يكون عند تحقق الشيء والفراغ منه. بخلاف ما نجده من استعمال لاحن عند البعض حين يقول على سبيل المثال : "جئت إن شاء الله". فمادام الفعل المراد تحققه قد حصل فالمشيئة ثابتة والصواب إلحاق فعل المجيء بالحمد والشكر فنقول : "جئت والحمد لله".

3 - أنواع المقدمة

يبدو أن ما استقر في الذهن إلى حدود كتابة هذه السطور هو شكل المقدمة باعتبارها أسلوبا نثريا، ولو كانت لكتاب غير نثري. والحق أن المقدمة لا تتقيد بأسلوب واحد، بل قد تتخذ الشعر أسلوبا لها. كما قد تتخذ أساليب أخرى كأسلوب الرسائل الجوابية وأسلوب الحوار، والمناظرة، وأسلوب المقدمة النقدية.

فالمقدمة/الرسالة هي في الأصل جواب عن سؤال من أحدهم إلى المؤلف يكون بمثابة حافز إلى التأليف مثلما نجد في مقدمات

18 - عيار الشعر : 41

كثيرة منها مقدمة ابن وكيع لكتابة "المنصف" إذ يقول : "أما بعد حمدا لله والصلاة على رسوله الكريم، وعلى آله المصطفين الأخيار، الطيبين الابرار، فإنه وصل إلى كتابك الجليل الموضع، اللطيف الموقع. تذكر إفراط طائفة من متأدبي عصرنا في مدح أبي الطيب المتنبي وتقديمه... وأحببت إنهاء ما عندي إليك، غير متحيف لك ولا عليك فأقول والله الموفق للصواب"[19].

أما المقدمة/الحوار أو المناظرة فأبرز نموذج تمثل لهابه مقدمة الآمدي لكتابه "الموازنة "التي أجرها على شكل حوار بين أنصار أبي تمام وأنصار البحتري.

والملاحظ في هذين الصنفين أن حظ عنصر التخيل فيهما كحظ الحقيقة ؛ لأن السائل أو المحاور قد يكون متوهما كما قد يكون حقيقيا.

أما المقدمة التي تتخذ الشعر أسلوبا لها، فكثيرا ما نجدها في الدواوين الشعرية التي يحرص فيها أصحابها على أن يكون التقديم من جنس المقدم له، وقد نجدها كذلك في بعض الأعمال السردية. فمن النوع الأول نقرأ في مقدمة أحمد رامي لديوانه التي هي عبارة عن مقطوعة شعرية ما يأتي :

---

19 ـ ابن وكيع : المنصف للسارق والمسروق منه. ت : يوسف نجم 1 / 3 . دار صادر بيروت.

إلى محراب أفـــكاري * ومهبط وحـي أشعـــاري
إلـــى الـقـلـب الـــذي * حرك بالأشجـان أوتــاري
أقدم كـأس أشعــــاري * وأهـدي غــض أزهــــاري[20]

وقد قدم الشاعر الكبير أمل دنقل لديوانه بسطرين شعريين عبارة عن اهداء قال فيـــه :

إلى الاسكندرية
سنوات الصبا ! [21]

وقدم محمود درويش لاعماله الشعرية بأبيات يوجه فيها القارئ بقوله :

... يا قارئي !
لا ترج مني الهمس
لا ترج الطرب
هذا عذابي
ضربة في الرمل طائشة
وأخرى في السحب
حسبي بأني غاضب
والنار أولها غضب [22]

وقدم الشاعر المغربي أحمد المجاطي لديوانه "الفروسية "

---

20 ـ احمد رامي : الأعمال الشعرية الكاملة ص 14 دار العودة بيروت .
21 ـ أمل دنقل : الأعمال الشعرية الكاملة ص 45 دار العودة بيروت .
22 ـ محمود درويش : الاعمال الشعرية الكاملة .ص. 7 - 8 دار العودة بيروت.

بقصيدة الخوف يقول فيها :

الكلمة الصغيرة
تقال أو تخط
فوق الـمـــاء
... ما بالها ؟
مملكتي مملكة الصمت
اخسأوا
امقتها كلمة
قيلت لغير المدح
والهجاء [23]

ومن خصوصيات هذه المقدمات الشعرية ـ إلى جانب كونها من جنس المقدم له ـ أنها تكاد تلخص التجربة الشعرية لدى أصحابها وتبوح بها. فمن تجربة رومانسية لدى رامي، إلى تجربة مسكونة بالأسطورة والتاريخ وأسر المكان واسترجاع عبق التاريخ والذكريات لدى أمل دنقل، إلى تجربة توقظ القارئ من وهدة الهمس والطرب إلى صحوة الغضب والثورة (محمود درويش) إلى تجربة يؤرقها الحرف والكلمة، وتكتوي بنارهما (أحمد المجاطي).

ولاشك أن تمتع الخطاب الروائي بخاصية التعدد اللغوي كما

---

23 ـ أحمد المجاطي : ديوان الفروسية : منشورات المجلس القومي للثقافة العربية. ص 9 - 10

يرى باختين. هذا الخطاب الذي ينتظم في نسق اسلوبي منسجم يسعى لترجمة الوضعية الاجتماعية الايديولوجية المميزة للكتاب داخل التعدد اللغوي لعصره" كانت من ابرز تجلياتها أن قدم بعض الروائيين لأعمالهم بجنس الشعر من ذلك تقديم محمد زفزاف لروايته "المرأة والوردة" بنص شعري يقول في بعض مقاطعه :

بيني وبين نفسي
حديقة من الحجر
من التين والرماح ومواء القطط
من المسافات وخوار الثيران (24)

وقدم عبد القادر الشاوي لروايته "كان وأخواتها" بنص شعري جاء في مطلعه :

زمن تبدد والمحال آية تنزل
والشذى عبير يرق والمدى هودج وانبساط
والضلوع، أوار في الضلوع، نار لسان شبقى أحمر
يمد في خوض النطاق دما صقيلا والسعير (25)

وقدم أدوار الخرط لروايته "يا بنات اسكندرية" ببيتين من العامية المصرية يقول فيها :

يــــا بنـات اسكـنـدرية * مشيكم على البحر غيّه
تِلْبسـوا الشـاهي بتـُلّـى * والشفـايـف سكّـريـة (26)

---

24 ـ محمد زفزاف "المرأة والوردة" الشركة المغربية للناشرين المتحدين . ص 23 .
25 ـ عبد القادر الشأوي : "كان وأخواتها" دار النشر المغربية. ص 9 .
26 ـ أدوار الخراط : "يا بنات اسكندرية" منشورات دار الآداب. ص 5 .

وإلى جانب هذه الأنماط نجد نمطا يمكن تسميته بالمقدمة النقدية التي كثيرا ما تتحول إلى بيان نقدي لصاحبها ويمكن أن نمثل لهذا النوع بمقدمات كمال أبي ديب لأعماله النقدية وبخاصة منها كتابه "في البنية الايقاعية للشعر العربي" والذي يتضمن مقدمة في علم الإيقاع المقارن كما يسميها صاحبها. ثم تقديمات محمد مفتاح لمشروعه النقدي بدءا بسيمياء الشعر القديم إلى آخر إصداراته.

4. مؤلف المقدمة

يرى ج. جنيت أن موضوع مؤلف المقدمة موضوع معقد إلى حد ما لأن أشكال مؤلفي المقدمة، حقيقين كانوا أم وهميين. متعددة [27] ؟ فهناك المؤلف المباشر الحقيقي أي صاحب المقدمة والمتن معا، وفي هذه الحال غالبا ما يهيمن ضمير "أنا" المتكلم الذي يعتبر خاصية من مميزات خطاب المقدمة لأنها ـ أي المقدمة ـ [أكثر نزوعا إلى الخطاب القائم على ضمير المتكلم (أنا) فالمؤلف يفرض نفسه باعتباره كاتبا وأسلوبا يؤسس منه صورة أقرب لما يعتقده حقيقة، وبهذا المعنى فالمقدمة بشكل عام خطاب أستاذية][28] غير أن هناك حالات تكتب فيها المقدمة على لسان أشخاص آخرين غير المؤلف وفي غالب الأحيان تكون تلك الشخصيات من صنع المؤلف الحقيقي وهذا النوع هو الذي سماه جيرار جنيت : La préface fictive[29] وحتى إن كانت تلك

27- Seuils . P:165 .

28- J.M.GLEIZE : "Manifestes .. prefaces ... " litt : N°31/1980 , P.14 .

29- Seuils : P:166 .

الشخصيات موجودة فعلا، فإن الخطاب الذي يجري على لسانها لا يعدو أن يكون من صنع المؤلف نفسه. ولعل أوضح نموذج لهذا النوع في الثقافة العربية مقدمة الآمدي لكتابه "الموازنة" ؛ إذ أجرى في هذه المقدمة حوارا متوهما بين أنصار البحتري وأنصار أبي تمام وهو في الواقع حوار متخيل لا يعكس سوى آراء ومواقف الآمدي من الشعر المحدث وعمود الشعر.

ونجد إلى جانب هذه الأنواع نوعا آخر من المقدمات لا يكتبها أصحابه المؤلفات أنفسهم، بل يكتبها أشخاص آخرون يتوخون من خلالها أغراضا متعددة يمكن إجمالها في أنواع ثلاثة كما حصرها عبد الكبير الخطيب [مقدمة تقريضية في غالب الأحيان لا تضيف شيئا إلى الكتاب المقدم ويمكن أن تكون فقط تجارية أو اشهارية... مقدمة نقدية : تدخل في حوار مع الكتاب المقدم له، تحلله لفائدتها الخاصة مع مساءلته وعدم الاستسلام لما يقدمه... مقدمة موازية للنص ؛ وتكون مستقلة تماما عنه] (30).

5 - المتلقي في المقدمة

إن المتلقي عنصر ذو أهمية قصوى في جميع الخطابات كما أنه عنصر فاعل في عملية التأليف وإنجاز المؤلفات "لابد أثناء التحليل من الانتباه إلى مشاركة المتلقي في إنجاز الكتاب، فلولا

30 - من تقديم عبد الكبير الخطيبي لكتاب علد الفتاح كيليطو : الأدب والغرابة، دار الطليعة بيروت ص 5 و 6.

المتلقي لما كان هناك سرد ولا تأليف" [31] وتصدق هذه المقولة على المتلقي في خطاب المقدمة ؛ إذ أجمعت التنظيرات على أهميته وضرورة بحث علاقته مع مؤلف المقدمة باعتبار المؤلف يسعى باستمرار إلى فرض علاقة متميزة مع قارئه ومتلقيه سواء كان فردا أو جماعة أو رمزا[32]. وتبدأ هذه العلاق بنوع من استدراج المتلقي لكسب موافقته للتصديق بالحكم وقبوله، لتنتهي في الأخير بمحاولة إخضاعه وإدعانه ثم انقياده وذلك لأن إيمان القارئ بحسن نية المؤلف شرط أساسي لنجاح منهجه وبث خطته. والملاحظ أن في هذا النوع من العلاقة التي تسعى المقدمة إلى ربطها مع قارئها تلتقي بأبرزخصوصيات البيانات Les manifestes[33]. ونظرا لأهمية هذا العنصر وجدناهم قديما يلحون في فصل سمي قوانين الكتابة وآدابها على ضرورة احترام طبقات المتلقي وخصوا كل طبقة بعبارات خاصة "الكتابة ـ أعزك الله ـ موطن ترحيب وتأهيل، والخطابة مقام ترفيع وتبجيل وأن يكون الكاتب في حيز من قد علا وزاد خير من أن يكون في حيز من قصر عن الواجب المعتاد.وخير من هذين أن يلقى كل طبقة بما يشاكلها من اللفظ ويوافقها ويقابل كل فئة بما يشاكلها من المعنى ويطابقها... إن لفظ الأكبر والأعظم والأعلى والأجل والنبيه والنبيل، فيكتب به إلى من دون هذا القبيل. وأما قولك أدام الله

---

31 ـ عبد الفتاح كيليطو : الحكاية والتأويل دار توبقال ص 33 .

32 - Voir : -J.M.GLEIZE :" manifestes , prefaces ... " P.14 . - Seuils . P:14,15 et 180 .

33 - J.M;GLEIZE : "manifestes ... " P.14 .

إعزازه فلا يكتب به إلا إلى أولي النهى والأمر... وأما قولك أعزك الله فيكتب به إلى من يستقل بذاته ممن يكتب عن نفسه...وأما قولك أدام الله عزه فيكتب به إلى أهل النباهة والرفعة ممن يكتب إليه... وأما قولك فرأيك في كذا فإنما يكتب بها إلى الأكفاء لأن فيها معنى الأمر"[34]

6- وظائف المقدمة

تتعدد وظائف المقدمة بتعدد واختلاف طبيعة المقدمة ذاتها وسياق تأليفها ومع ذلك يمكن حصر وظائفها في :

1 - السعي إلى تنبيه القارئ وتوجيهه وإخباره بأصل الكتاب وظروفه ومراحل تأليفه ومقصد مؤلفه وهذا ما يمكن أن نصطلح عليه باستراتيجية البوح والاعتراف[35] ويمكن اعتبارها الوظيفة المركزية وقد جاء في المعاجم اللغوية ما يدل على أن معنى المقدمة هو "الفصل الأول من كتاب يتناول بشيء من الإجمال الأسس التي يقوم عليها الكتاب والتي بدونها لا يمكن أن يفهم تخطيط تأليفه[36] "وهي كذلك "مقال طويل يقدم به المؤلف أهم المبادئ والمناهج التي سيقوم عليها مؤلفه فيما بعد"[37]

34 - إحكام صنعة الكلام ، 250-251.
35- Seuils . P.P 197 - 20 2 .
36 - معجم المصطلحات العربية : مجدي وهبة ... 380 .
37 - نفسه 380 .

2 ـ أن المقدمة من خلال هذه الاستراتيجية تسعى إلى توجيه القراءة وتنظيمها، كما تسعى إلى تهييء القارئ لاستقبال مشروع قيد التحقق سيكون مجاله متن الكتاب وهذا ما يؤكد مشروعية اعتماد المقدمة الملفوظات الدالة على الاستقبال (وقد مر بنا ذلك) وبذلك فبقدر ما تصير قراءة المقدمة ضرورة لا مناص منها للدخول في فضاء المؤلف، بقدر ما تتقلص حرية القارئ في إمكانية تجاوزها إلى المتن مباشرة" لا أحد ينبغي أن يتجأوز قراءة المقدمة، فهذه حرية لا يرحب بها المؤلف ".(38)

3 ـ قد تتحول المقدمة إلى نوع من الميتالغة للنص المقدم له، تختزله وتكثفه دون أن يعني ذلك أن قراءتها قد تغني عن قراءة المتن، بل إن قراءة المتن تصير مشروطة بقراءة المقدمة.

4 - في بعض الأحيان تسعى المقدمة إلى مصادرة الانتقادات التي قد تمس الكتاب وبذلك تتحول إلى خطاب دفاعي حجاجي.

5 - وفي بعض الأحيان تتحول إلى شرح وتحليل مطولين للعنوان.

إن المقدمة بهذا المعنى، ليست ذلك النص الذي يمكن تجاوزه بسهولة بل إنها العتبة Seuil التي تحملنا إلـى فضاء المتن الذي لا تستقيم قراءتنا له إلا بها... إنها نص جد محمل ومشحون، إنها وعاء معرفي وأيديولوجي تختزن رؤية المؤلف وموقفه من

38- Seuils . P:10 .

إشكاليات عصره... إنها مرآة المؤلف ذاته. وقد نقل جيرار جينيت عن موريس بلانشو قوله: "إن الكاتب الذي لا يوجد قبل متن كتابه، لا يوجد بعده "(39). وهذا ما يحتم التعامل مع نصوص المقدمات تعاملا خاصا وصولا إلى كشف ما تختزنه من قضايا تتعلق بإشكاليات عديدة.

Seuils . P : 160 - 39

الفصل الثاني

إشكالية التأليف: بؤرة خطاب المقدمات

" نشر كتاب يعرض للطعن في مرحلة أولى، ثم للسرقة في مرحلة ثانية، فكيف السبيل إلى تفادي هذا الجور، وكيف الحفاظ على الكتاب من الطعن، أو السرقة ؟ أنجع وسيلة وأحسنها هي نسبته إلى مؤلف قديم حفه الزمن بالمجد والشرف ".

عبد الفتاح كيليطو : الكتابة والتناسخ ٨٠

إشكالية التأليف بؤرة خطاب المقدمات

سبقت الإشارة إلى أن مقدمة التأليف تحرص على ذكر الغرض أو الدافع إلى التأليف باعتباره عنصرا جوهريا، يقوم بدور تحديد وتوجيه بقية العناصر المكونة لخطاب المقدمة من مؤلف ومتلق وفضاء ووظيفه... الخ.

وقد استقر اختيارنا على مجموعة من المقدمات لكتب نقدية قديمة لكونها تمثل حقلا غنيا تتجسد فيه، ومن خلاله كثير من تقنيات هذا الخطاب، ولذلك ضم المتن المنتقى بعض المقدمات التي يتسم بناؤها بالبساطة مع احترامها لمواصفات الخطاب المذكور ومنها مقدمة "طبقات فحول الشعراء : لابن سلام الجمحي، ومقدمة " الشعر والشعراء " لابن قتيبة. كما ضم المتن مقدمات يلمس القارئ من خلالها ماتسم به بناؤها من تركيب وتداخل يفضي إلى تعقيد غير مذموم، ومن هذه المقدمات : مقدمة كتاب البديع" لابن المعتز. ومقدمة "عيار الشعر" لابن طباطبا، ومقدمة " نقد الشعر" لقدامة بن جعفر، ومقدمة " اخبار أبي تمام" للصولي. ومقدمة "الموازنة" للامدي. ومقدمة "الوساطة" لعبد العزيز الجرجاني. وهي غيض من فيض، وتكاد تلخص كثيرا من مقومات خطاب المقدمات.

I - المقدمات البسيطة البناء.

I-1 - مقدمة كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن السلام الجمحي.

يكاد اجماع الدارسين لهذا الكتاب ينصرف إلى أن مقدمته مضطربة، مبعثرة الموضوعات، وذلك إما بسبب عبث النساخ بها[1] وإما لأن محاورها لاعلاقة لها بمتن الكتاب. يقول احمد جاسم النجدي "واذا ما انتهينا إلى اوائل القرن الثالث واجهنا كتاب ابن سلام طبقات فحول الشعراء وفيه مقدمة طويلة مضطربة الموضوعات لايمكن أن نعدها مقدمة بالمعنى العلمي إذ أنها احتوت على كثير من الموضوعات التي لاعلاقة لها بصميم الكتاب " [2].

واذا كنا نشاطر الدارسين رأيهم باضطراب موضوعات هذه المقدمة، وهو أمر غير معيب، كما سنبين ذلك في موضعه، فإنا خلافا لما ذهب إليه الرأي الثاني. نقر بأنها اتسمت بكل الخصوصيات البنيوية التي تجعل منها مقدمة بالمعنى العلمي الدقيق لمفهوم المقدمة. فهي بمثابة العتبة الضرورية لولوج متن الكتاب

---

1 - أمجد الطرابلسي : نظرة تاريخية في حركة التأليف 181 .
2 - منهج البحث الأدبي عند العرب : 230 .

ولولاها لما أمكننا معرفة المقاييس التي بنى عليها ابن سلام تقسيمه لشعرائه المائة وأربعة عشر الذين شملهم الكتاب، بل إنها تقدم لنا وجها متميزا من وجوه ابن سلام الثقافية.فاذا كان متن الكتاب يكشف لنا عن وجهه باعتباره رجل اختيارات وتراجم، فإن المقدمة تعكس لنا وجهه باعتباره ناقدا، ضمن مقدمته خلاصة مشروعه النقدي يقول أمجد الطرابلسي "ويمتاز هذا الكتاب بمقدمته الجليلة التي هي أقدم ما كتب في النقد الأدبي، وقد ضمنها ابن سلام صفوة آرائه في النقد" (3).

فالمقدمة إذن هي فاتحة مشروع نقدي، ومتن الكتاب مجال لإنجاز هذا المشروع بغض النظر عما اذا كان ابن سلام قد وفق في إنجاز هذا المشروع أم لم يوفق.

إن ما لوحظ في المقدمة من اضطراب وتبعثر في الموضوعات لاينبغي النظر إليه بمعزل عما أنيط بالكتاب ككل من إشكاليات تتعلق بالكتابة في عصر ابن سلام وبخاصة إشكالية التوثيق ذلك أن ابن سلام أقام كتابه "وفي ذهنه زخم يتجاوز التسجيل والتدوين وحفظ القديم، وهو لايكتفي بترجمة حياة الشعراء أو التعريف بهم وحفظ نتاجهم، ولكنه يقدم رؤية خاصة، جاءت واضحة في موقع، وغامضة بالنسبة لنا في موقع آخر. ولم تكن شروط عمله في الطبقات مبسوطة أمامنا، لهذا كان ماكان "(4).

---

3 ـ نظرة تاريخية في حركة التأليف 180-181 .

4 ـ قراءة في مقدمة طبقات فصول الشعراء لابن سلام : سليمان الشطي . مجلة عالم الفكر ، المجلد 12 العدد 1 السنة 87 ص 158 .

وإذن، فمن شأن هذا الزخم المعرفي والثقافي وتدافع الموضوعات والحقول المعرفية في مشروعه أن تنعكس ـ بشكل أو بآخر ـ على ترتيب موضوعات المقدمة، إذ نلاحظ بعد الفقرات الست الأولى من هذه المقدمة، التي خصصها على التوالي لشرح الغرض من التأليف، وذكر قضية الوضع والافتعال في الشعر، ثم الحديث عن ثقافة العالم بالشعر، استطرادا في أخبار لغوية ونحوية، استغرقت ما يربو على عشر صفحات. ولم يعد ابن سلام إلى موضوعه إلا في الفقرة التاسعة والعشرين التي استهلها بعبارة ذات دلالة هامة في حقل خطاب المقدمات، وهي قوله : "رجع إلى قول الشعراء وإلى قول العلماء فيه، ولكل من ذكرنا قوله فيه"[5]. فهذه العبارة، على الرغم من أنها واصلة بين أجزاء مشروعه النقدي، فإنها في ذات الوقت تدل على أن ابن سلام كان واعيا باستطراده وإطنابه الذي لايعد في ثقافته وثقافة عصره، وكذا في تصوره، لدور الناقد شيئا معيبا. بل هو أمر مرغوب فيه. فبحث القضايا النحوية واللغوية في الفقرات الاستطرادية شيء من صميم العملية التوثيقية التي انتدب ابن سلام نفسه لها، والتي ستستغل بعض القضايا منها في العملية النقدية سواء مع ابن سلام أو مع من تلاه من نقاد القرن الثالث ومابعده.

أما ما يمكن أن ينسب من اضطراب وتبعثر في موضوعات المقدمة إلى راوي الكتاب، وهو ابن اخت محمد بن سلام : أبو

5 ـ طبقات فصول الشعراء : ابن سلام الجمحي 23/1 .

خليفة الفضل بن الحباب بن محمد بن شعيب بن صخر بن عبد الرحمان الجمحي(6)، ففي رد محمود شاكر عن مزاعم " يوسف هل "في مقدمته الاولى لطبعة الكتاب بمطبعة "بريل" في مدينة ليدن سنة ١٩١٣-١٩١٦ مايكفي لتبرئة ذمة أبي خليفة الفضل ابن الحباب، فقد استعرض محمود شاكر المواطن الخمسة التي تدخل فيها راوي الكتاب، وهي كالتالي :

أ ـ الصفحة ١١، السطر الأول : " والبيت مريب عند أبي عبد الله "(7).

ب ـ الصفحة ١٧، تعليق ١، نقلا عن المرزباني، وهو قوله : " قال الفضل..."(8)

ج ـ الصفحة ٤١، الخبر رقم ٤٦ : " يقال يتهكم ويتكهم قال الفضل : يقال ليلة بهرة، اذا كان قمرها وضيئا "(9)

د ـ الصفحة ١٤٠، الخبر ١٦٩، المسند كله إلى أبي الفضل " نا ابو خليفة، نا ابو عثمان المازني، عن الاصمعي عن نافع بن أبي نعيم، قال : مر رجل من مزينة بباب رجل من الأنصار، وقد كان يتهم بامرأته، فتمثل

* هل ماعلمت وما استودعت مكتوم *

---

6 ـ ينظر ترجمته في الفهرست لابن النديم . ص 114 . ومعجم الأدباء لياقوت الحموي 134/6

7 ـ طبقات فحول الشعراء 11/1 .

8 - . . . 17/1.

9 - . . . 41/1.

فاستعدى رب البيت عليه عمر، فقال له عمر : ماأردت ؟ قال : وما علي في أن أنشدت شعرا. قال : قد كان له موضع غير هذا، ثم أمر به فحد " [10].

هـ ـ الصفحة ٣٩١، آخر الفقرة ٥٢٩ : " الجدل : الفتل والأداهم : الحبال. نا ابو خليفة : كل من كان في عمله حديد فهو قين. بذى نجب : يوم التقت بنو حنظلة وبنو عامر، إلا بني مالك بن حنظلة "[11].

وانتهى بعد ذلك إلى التماس تبرير منسجم لهذا التدخل أو التصرف من قبل راوي الكتاب، فقال : "ففي هذه المواطن الخمسة استدخل أبو خليفة نفسه في نص ابن سلام، أو يكون سئل عن ذلك والكتاب يقرأ عليه، فأجاب، فأثبت الراوي عنه ماقاله أبو خليفة في نص نسخته، وهذا أرجح لأن بعضه موجود في نسختنا، وبعضه في رواية المرزباني في نسخته، وليس موجودا في مخطوطتنا. ثم لم نجد ـ فيما قبل ذلك ولابعده ـ مايدل على أن ابا خليفة استدخل نفسه أو تصرف اي تصرف في النص الذي يرويه عن خاله ابن سلام" [12].

فالمقدمة، شأن متن الكتاب ينبغي أن ينظر فيها من خلال هذه المعطيات السالفة الذكر، وساعتها يمكن رسم الخطوط العامة

---

10 ـ طبقات فحول الشعراء 140/1.
11 ـ 191/1.
12 ـ من مقدمة المحقق محمود شاكر لكتاب طبقات فحول الشعراء . 57/1 .

لعناصرها وموضوعاتها، وربط بعضها ببعض، مما يشكل التصور الكلي للمشروع النقدي العام لمحمد بن سلام الجمحي.

تشير مقدمة ابن سلام إلى أن القصد من تأليف الكتاب كان قصدا موضوعيا صرفا، أملته إشكالية أدبية وثقافية، سادت عصر المؤلف مما احتاجت معه إلى من يتولى معالجتها، والإجابة عنها، ذلك أن الساحة الأدبية في عصره كانت - كما يبدو - تشكو غياب مصنف يضم شعراء العصر للإحاطة بهم وحفظ اخبارهم وأشعارهم... وما إلى ذلك. وهذا ما اضطلع به ابن سلام حين يقول : " ذكرنا العرب، وأشعارها، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها إذ كان لايحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب وكذلك فرسانها وسادتها وأيامها، فاقتصرنا في ذلك على من لايجهله عالم ولايستغني عن علمه ناظر في أمر العرب، فبدأنا بالشعر " [13].

فمنذ البداية تطالعنا رغبة المؤلف في تجاوز مرحلة النقل والرواية الشفوية إلى مرحلة التدوين، "ذكرنا العرب". وهذا ما أشار إليه أحد الباحثين بقوله : " فالكلمات الأولى تلغي النقل والرواية المطلقة، وتدخل حيز اعمال العقل بالاختيار والانتقائية المعتمدة على الفحص"[14]. وهذا التدوين في البداية يقوم على

13 - طبقات فحول الشعراء 1/ 4.
14 - قراءة في مقدمة طبقات فحول الشعراء : سليمان الشطي . ص : 158

مبدأ الانتقاء الخاص، "المشهورين المعروفين" وينتهي بانتقاء الأخص : " فاقتصرنا في ذلك على من لايجهله عالم ولايستغني عن علمه ناظر في أمرالعربي فبدأنا بالشعر " وترتبط هذه المسألة بما لاحظه في الشعر من وضع وانتحال "وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لاخير فيه..."[15] ومعنى هذا أن طبقات فحول الشعراء كان إستجابة لإشكالية ثقافية وحضارية عامة وهي ضرورة تدوين القديم وحفظه وصيانته مما لحقه من وضع وانتحال، لذلك كانت الفكرة الأساسية التي ارتبطت بهذه الإشكالية وهيمنت على المقدمة حتى صارت بمثابة العبارة/ المفتاح هي فكرة الأسبقية والأولوية في العلوم والفنون ؛ ففي مجال اللغة العربية "كان أول من أسس العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها ووضع قياسها، أبو الأسود الدؤلي"[16]. وفي مجال النحو والقياس كان أول من بعج النحو ومد القياس هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي[17]. وفي مجال الشعر "لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف"[18]. أما أول شاعر طول القصائد فهو المهلهل بن ربيعة. وكان أول من قصد القصائد، وذكر الوقائع، المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل"[19].

---

15 - طبقات فحول الشعراء : 1 / 4 .
16 - " " " 12/1.
17 - " " " 14/1.
18 - " " " 26/1 .
19 - " " " 39/1 .

إن اهتمام ابن سلام بتحديد بداية العلوم والفنون، يعد من صميم إشكالية التدوين فضلا عن صحة ما ينبغي أن يدون، وخلوه من الدس والخطأ. وهذا العنصر الثاني في عملية التدوين هو الذي وسم المقدمة ـ شأن بقية المتن ـ بسلسلة الأسانيد إذ أن ابن سلام كان كثير اعتماد أقوال العلماء مصرحا بإسناده لأن هذه الأسانيد لاتقل أهمية عن المتن وجماع هذه العناصر يحيل على أبرز خصوصيات منهج ابن سلام التاريخي المتمثل في بحث تاريخ اللغة والشعر العربيين، وتاريخ الأعلام والمراكز الأدبية وغير ذلك. وفي نص للاستاد إدريس الناقوري ما يشفع بصحة هذا الاستنتاج."لقد انصبت محاولة ابن سلام على الجانب التوثيقي، حين اهتم بالبحث عن أولية الشعر وسعى إلى طرح نقطة منهجية هامة تتعلق بالنحل وبضرورة فرز الصحيح من الفاسد فيه... ومطالبة ابن سلام بتحقيق هذا الشعر قد لاتتصل اتصالا وتيقا بنقد الشعر، ولكنها في جميع الحالات مرحلة ضرورية لتأصيله على أسس واضحة وسليمة. ولهذا كان المنهج عند ابن سلام تاريخيا قبل أن يكون فنيا أو نقديا"(20).

I-2- مقدمة "الشعر والشعراء" لابن قتيبة

يجدر في البداية الوقوف عند قضية كانت مثار خلاف بين الدراسين بخصوص مقدمة كتاب " الشعر والشعراء " لابن قتيبة.

---

20 ـ ادريس الناقوري : المصطلح النقدي في نقد الشعر : 28-29 .

ومضمون هذا الخلاف يتلخص في إمكانية اعتبار المقدمة جزءا من الكتاب أم أنها تشكل كتابا مستقلا بذاته ؟. لقد ذهب الطاهر مكي إلى اعتبار كتاب "الشعر والشعراء" عبارة عن كتابين : أحدهما في الشعر والثاني في الشعراء. وكان كل منهما نواة مؤلف مستقل، إلاأن الظروف لم تيسر بظهورهما منفردين، فجمع بينهما بالرغم من اختلاف المنهج والمادة : "ويخيل إلي، والكتاب بعض ماألف ابن قتيبة في أواخر حياته، أن كلا منهما كان نواة مؤلف مستقل، لم تواته الفرصة ليمضي به إلى غايته كاملة، فجمع بينهما برغم تباعد المنهج والمادة، فهو في الأول مبدع ناقد، وفي الآخر رواية مؤرخ. ويعزز رأيي هذا أنه يشير إليه في بعض مؤلفاته الأخرى، باسم "كتاب الشعر"، على حين يحيلنا في مؤلف آخر إلى " كتاب الشعراء"[21]. غير أن كثيرا من الدارسين يذهبون مذهبا مخالفا لما تقدم ويتحدثون عن هذه المقدمة، باعتبارها جزءا من الكتاب على غرار كتاب سلفه ابن سلام، يقول أمجد الطرابلسي : "ولهذا الكتاب كما لكتاب ابن سلام مقدمة مسهبة، لها مكانتها المرموقة بين آثار النقد الأدبي عند العرب"[22]. وفي حديث زغلول سلام، مايؤكد تصدر ها لكتاب "الشعر والشعراء"على أنها مقدمة له: "ويبدأ الكتاب بمقدمة طويلة للمؤلف يبسط فيها آراءه في الشعر والشعراء، ثم يتبعها بذكر الشعراء على مختلف طبقاتهم، قدماء ومحدثين، جاهليين

---

21 - دراسة في مصادر الأدب . 180 .

22 - نظرة تاريخية في حركة التأليف 184 .

وإسلاميين"[23] وجميع هؤلاء يجمعون على أهميتها في مجال النقد الأدبي وتأثيرها في النقاد اللاحقين، بل إن إحسان عباس ذهب إلى اعتبار هذه المقدمة بمثابة بيان نقدي لصاحبه، وإن كان في حديثه ما يشير إلى ما بينها وبين متن الكتاب من بون من حيث تطبيق نظرياتها في الممارسة النقدية، دون أن يعني ذلك أنها كتاب مستقل بذاته يقول : "فهي بيان بموقفه النقدي عامة ودستور مستقل بمواده وأحكامه، وبينها وبين طبيعة الكتاب نفسه تباين واضح، فبينا تهدف هي إلى تصوير موقف المؤلف من الشعراء يجيء الكتاب دليلا موجزا ليستعمله المتأدبون من طبقة الكتاب، كي يتعرفوا إلى أهم الشعراء القدماء والمحدثين، ويستظهرون الجديد من أشعارهم وبين الغايتين فرق واسع لا يبيح لنا أن نتهم ابن قتيبة بأنه وضع مبادئ عجز عن تطبيقها"[24].

وإذ تبين ذلك نقول : إن مسار الثقافة العربية في القديم عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات مما يحتم بحث اللاحق فيها بالسابق، واستكناه مدى استفادة المتأخر من المتقدم، سواء تعلق الأمر بالجانب الإبداعي أو الجانب التنظيري. ومما يزكي هذا الاعتقاد أن مقدمة "الشعر والشعراء" لابن قتيبة تستحضر مقدمته طبقات فحول الشعراء لابن سلام لتستلهمها في تأسيس المشروع الأدبي الذي بدأه ابن سلام وتكمله. وانطلاقا من هذه الملاحظة نستطيع

23 ـ محمد زغلول : تاريخ النقد والبلاغة 137 وينظر مقدمة المحقق أحمد شاكر لكتاب الشعر والشعراء 1/ 37 .

24 ـ احساس عباس : تاريخ النقد الأدب عند العرب : 106 .

رصد كثير من نقاط التشابه بين المقدمتين أهمها ما يتعلق بإشكالية التأليف النقدي، أي ما هو القصد من تأليف "الشعر والشعراء"؟ يقول ابن قتيبة :"هذا كتاب ألفته في الشعراء، أخبرت فيه عن الشعراء، وأزمانهم وأقدارهم، وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم، وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره، وما أخذه العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وما سبق إليه المتقدمون، فأخذه عنهم المتأخرون وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها، إلى غير ذلك مما قدمته في هذا الجزء الاول"[25]. يلتقي ابن قتيبة مع ابن سلام في القصد من تأليف كتابيهما، ولا غرابة في ذلك ما دامت إشكالية الفترة التي عاشاها معا واحدة، إلا أن في قصد ابن قتيبة ما يشي برغبة تتجاوز التوثيق إلى زرع البذور الأولى لمرحلة تسعى لمباشرة النص الأدبي وتدبره بعد أن اضطلع سلفه ابن سلام بمستوى توثيق النص، وهذا ما يعبر عنه الجزء الثاني من قول ابن قتيبة الذي ينصرف فيه إلى شعر الرجل، ليخبر عنه من حيث جودته، وأقسامه، والوجوه التي يختار من أجلها، ومن حيث أصالته واتباعه وكذا من حيث مآخذ العلماء على نسج شعره وبنائه. وهو عمل لا يتأتى إلا إذا كان النص الشعري قد دون ووثق وعرف انتسابه، ولاقى من ناقده ما يكفي من التأمل وإدامة النظر.

---

25 ـ ابن قتيبة : الشعر والشعراء : 59/1 .

وفي عبارات ابن قتيبة ما يدل على ذلك "تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب"[26]، فالتدبر مرحلة تالية للجمع والتدوين والتوثيق.

كما يلتقي ابن قتيبة مع ابن سلام في اعتمادهما مبدأ الانتقاء القائم على الشهرة. لكن هذا المبدأ الذي قد يكتنفه الغموض عند ابن سلام، سنجد أن ابن قتيبة، كعادته في أسلوبه الذي اتسم بالتفسير والشرح، يزيل هذا الغموض ويجليه ويعطي لمبدأ الشهرة مفهوما أكثر وضوحا وأقرب فهما، وذلك بربطه بمبدأ آخر، هو مبدأ الاحتجاج" وكان أكثر قصدى للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب والذي يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم"[27]. فمبدأ الشهرة ـ بهذا المعنى لم يبق مفهوما عائما بل صارت له قوانين وضوابط.

ومن بين المحاور التي يلتقي فيها ابن قتيبة وابن سلام، مما يرتبط بإشكالية العصر، اهتمامه بقضية التأريخ لبداية علوم العصر وفنونه غير أن ابن قتيبة لم يستقص من هذه العلوم والفنون إلا فن الشعر،" لم يكن لاوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة، يقولها الرجل عند حاجته" [28] واضح أن صدى رأي ابن سلام يتردد على مسامعنا من خلال كلام ابن قتيبة أسلوبا ومضمونا، مما يشي

---

26 ـ نفسه 64 .

27 ـ نفسه 59 .

28 ـ نفسه 104 .

بتشابه اللغة النقدية لدى هذين الناقدين، التي ترجع أسبابها إلى تشابه الإشكالية الثقافية والنقدية التي عايشها الرجلان.

ومن خلال ما تقدم يمكن القول إن مقدمة ابن قتيبة "الشعر والشعراء" قد احتذت مقدمة ابن سلام "طبقات فحول الشعراء" فصارت الأخيرة مصدرا من مصادر الثقافة النقدية لابن قتيبة، ورافدا من أهم روافدها.

II - المقدمات المركبة البناء.

لا خلاف أن نهاية القرن الثالث الهجري وبداية الرابع منه كانت مرحلة تتويج لصراعات ثقافية وحضارية كبيرة، وقد تجسدت هذه الصراعات في شكل مناظرات في شتى ميادين المعرفة والنقد الأدبي واحد من هذه الميادين. فكان أن اتسمت الكتابة النقدية بأساليب ذات منحى سجالي Polemique، اتخذ في بعض الأحيان طابع الحوار والمناقشة الخفية. وفي أحيان أخرى طابع الحوار الصريح، وكانت بداية هذا الطابع مع ابن المعتز (-296 هـ).

II - 1 - مقدمة كتاب البديع لابن المعتز

اتسمت مقدمة ابن المعتز لكتابه "البديع" بخاصية منفردة ومتفردة، ذلك أنها توزعت عبر فضاءين اثنين من الكتاب، فقد شغل جزء منها بداية الكتاب، واستغرق الصفحات الثلاثة الأول. وشغل الجزء الآخر منها وسط الكتاب واستغرق الربع الأخير من

الصفحة 57 إلى الصفحة 58. وقد جاء جزؤها الأول ليقدم به فنون البديع الخمسة، وهي : الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها والمذهب الكلامي. وأما جزؤها الثاني فقد قدم به ما سماه ابن المعتز محاسن الكلام والشعر، وهي ثلاثة عشر فنا كالتالي : الإلتفات ـ الاعتراض ـ حسن الخروج ـ الرجوع ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم ـ تجاهل العارف ـ هزل يراد به الجد ـ حسن التضمين ـ التعريض والكناية ـ الإفراط في الصفة ـ حسن التشبيه ـ إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه ـ حسن الإبتداءات. وهذا الأمر، إذا لم يحملنا على الإعتقاد بأننا أمام مؤلفين اثنين، فإنه ـ لا محالة ـ يدعونا إلى التساؤل التالي : "وإذا لم يكن هناك فرق بينهما (أي فنون البديع ومحاسن الكلام والشعر)، فما العلة في فصل الفنون الخمسة الاولى وتخصيصها باسم البديع وإطلاق محاسن الكلام على الثلاثة عشر فنا التي تليها"[29].

يمكن الاطمئنان ـ مؤقتا ـ إلى التعليل الذي يقدم عادة على أن ابن المعتز لم يؤلف كتابه دفعة، بل ألفه على مرحلتين متقاطعتين[30].

---

29 ـ احمد بدوي : البيان العربي : 96.
30 ـ نفسه 96.

ولكن لابد من التساؤل ـ وهذا هو الأهم ـ ما الذي اضطر ابن المعتز إلى إخراج كتابه عبر مرحلتين ؟ هل هي طريقة خاصة به في التأليف ؟ أم أن المسألة تتعلق بسجال أدبي حول إشكالية العصر آنذاك وهي إشكالية الشعر المحدث، تعمد ابن المعتز ـ كما عند غيره ـ إخفاء طرفها الثاني، حتى ينفرد لنفسه بالتدشين لعهد جديد في الدراسات الأدبية القديمة، وهو عهد الدراسة الإصطلاحية ؟

يشعرنا حديث ابن المعتز عن دوافع تأليف كتاب البديع أن هيمنة هذا اللون الجديد من الأسلوب الشعري الذي يسمى بديعا، وأن ادعاء المحدثين سبقهم إلى هذا اللون هو الذي حذا به إلى إخراج كتابه :" قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع، ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر في أشعارهم، فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم، فأعرب عنه ودل عليه"[31].

لاشك أن ابن المعتز كانت تحدوه الرغبة العلمية والموضوعية في تأليف كتابه، سيما وأن الشعر المحدث صار مدعاة للتأمل

---

31 ـ ابن المعتز : البديع . ت : اغناطيوس كراتشوفسكي. ص 1 .

والتدبر، لكن ذلك لا ينبغي أن ينسينا أن هذه الرغبة امتزجت بهاجس آخر هو هاجس السبق إلى التأليف في هذا اللون الجديد، وهذا الهاجس هو الذي يضع أيدينا على الطابع السجالي الذي اتسمت به المقدمة سواء في جزئها الأول :"ولعل بعض من قصر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا في فضيلته، فيسمى فنا من فنون البديع بغير ما سميناه به أو يزيد في أبوابه"[32]. أو في جزئها الثاني حينما تكلم ابن المعتز عن علم من أعلام عصره لم يحدده بالاسم، بل اكتفى بنعته بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل، وهو الذي أخذ على ابن المعتز حصره لفنون البديع في خمسة أبواب، وبذلك نستطيع القول إن الجزء الثاني من المقدمة هو بمثابة الوشاية بحدة الصراع حول أول من ألف في البديع ومن ثم نفهم سر إصراره على نسبة السبق إليه مع تحديده لتأريخ التأليف،" قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا، وكأني بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال البديع أكثر من هذا، وقال البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها، فيقل من يحكم عليه بأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم، فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو، وما جمع فنون البديع، ولا سبقني إليه أحد، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين، وأول من نسخه مني علي بن هرون بن يحيى بن أبي

32 ـ نفسه 2-3 .

منصور المنجم"[33]، والنتيجة - إذن - أن هناك سجالا أدبيا يضمر بين طياته أن محاولات في فن البديع، وبالضبط، في محاصرة المصطلحات البديعية سابقة عن ابن المعتز أو متزامنة معه، غير أن كتب التاريخ والآداب سكتت عنها كما سكت ابن المعتز، وتلك آفة من آفات التأليف في الفترات التي تتداخل فيها الاشكاليات، ذلك أن المولفين كثيرا ما يرفضون - بقصد أو بغيره - التصريح بمصادرهم إلا ما ظهر منها. وإذا سلمنا بأنه لم تكن هناك محاولة سابقة في مجال مصطلح البديع عن ابن المعتز. فالراجح أن يكون ناقدنا أفاد من جهود العلماء السابقين عليه، التي ظلت متناثرة غير منتظمة، يقول إدريس الناقوري :"ولا يعدو بديع ابن المعتز أن يكون محاولة جديدة امتازت بالتنظيم والتبويب، أفاد صاحبها من النقاد والعلماء السابقين، وفي مقدمتهم الخليل بن أحمد والأصمعي والجاحظ وثعلب، فضلا عن استفادته في الجانب اللغوي من كتاب الاشناندانى (288 هـ) :"معاني الشعر" والكامل للمبرد. وحتى في ميدان البديع كان ابن المعتز عالة على الأصمعي في بعض المصطلحات مثل البديع والتشبيه، والاستعارة [34].

II-2 - مقدمة نقد الشعر لقدامة بن جعفر

لم تبحث الأعمال والدراسات التي تناولت "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر بالتحديد الدقيق لفصول الكتاب ومقدمة المؤلف.

---

33 - نفسه 57-58 .

34 - المصطلح النقدي في نقد الشعر 32 .

وتبدو أهمية الإلحاح والدعوة إلى ذلك حينما نجد أن محققي الكتاب، وهما مصطفى كمال[35] وعبد المنعم خفاجي [36] يعتبران التوطئة أو التمهيد الذي وضعه قدامة لكتابه فصلا أولا. والحقيقة أن كل القرائن التي يزخربها ما سماه المحققان فصلا أولا، تقيم الدليل على أن ذلك الفصل أقرب إلى التمهيد منه إلى الفصل، إن لم نقل إنه جزء من مقدمة المؤلف الذي يطالعنا بين الفينة والأخرى أنه في إطار التمهيد أو كما يسميه قدامة "التوطيد" لموضوع كتابه، يقول في حديثه عن معاني الشعر، "ومما يجب توطيده وتقديمه، قبل الذي أريد أن أتكلم فيه.."[37] وفي نفس حديثه ذلك يقول: "ومما يجب تقديمه أيضا أن مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين... غير منكر عليه ولا معيب فعله إذا أحسن المدح والذم.." [38].

ومن القرائن التي تعضد ما نذهب إليه من كون ما يسمى فصلا أولا عند محققي الكتاب هو أقرب إلى المقدمة منه إلى الفصل تلك العبارات الدالة على أن قدامة ما يزال في نطاق التوطيد لمشروعه الذي سيفصل في متن كتابه، وهذا نموذج من ذلك. يقول قدامة: "ولما كان لكل واحد من هذه الثمانية صفات يمدح بها، وأحوال يعاب من أجلها، وجب أن يكون جيد ذلك

35 ـ نقد الشعر لقدامة بن جعفر . ت : كمال مصطفى 1978/3 .
36 ـ نقد الشعر لقدامة بن جعفر . تحقيق وتعليق عبد المنعم خفاجي . دار كتب العلمية بيروت.
37 ـ قدامة بن جعفر : نقد الشعر . ت . كمال مصطفى 19 .
38 ـ نفسه . 19-20 .

ورديئه لاحقين للشعر إذ كان ليس يخرج شيء منه عنها، فلنبدأ بذكر أوصاف الجودة في واحد منها ليكون مجموع ذلك، إذ اجتمع للشعر كان في نهاية الجودة، ونعقب بذكر العيوب"(39) فإذا أنعمنا النظر في هذا النص وجدنا أن المشروع الذي وعد به قدامة بن جعفر من ذكر أوصاف الجودة في البداية والتعقيب بذكر العيوب، لن يجد طريقه إلى التطبيق إلا في متن الكتاب، ذلك أن من بين خصوصيات خطاب المقدمات توفره على قرائن تشعر القارئ أنه أمام الخطوط العريضة لمشروع مستقبلي أي مشروع سيتحقق على امتداد متن الكتاب. فالمؤلف في مقدمته لا يعدو أن يكون معبرا عن رغبة في القول أو الفعل "Un vouloir dire" لا محققا له. وإذا تبين ذلك نستطيع القول إن مقدمة كتاب "نقد الشعر" لا تنتهي عندما انتهى إليه محققا الكتاب، بل تتجاوزه إلى ما اعتبراه فصلا أولا. ومن ثم يتسنى لنا البحث من خلالها في إشكالية التأليف النقدي والملابسات التي أنيطت بها.

يكشف قصد قدامة في تأليف كتابه ذاك عن رغبة أملتها شروط موضوعية تتمثل في تأسيس علم الشعر لم يسبق إليه أحد من العلماء ألا وهو علم النقد الذي يقوم على تمييز جيد الشعر ورديئه. صحيح أن العلماء قد التفتوا إلى بعض العلوم التي تتصل بالشعر كعلم العروض والوزن، وعلم القوافي والمقاطع، وعلم الغريب واللغة، وعلم المقاصد والمعاني. لكنهم أغفلوا ما هو شديد

39 - نفسه 26.

الصلة بموضوع نقد الشعر وهو علم تمييز جيده عن رديئه. "ولم أجد أحدا وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا، وكان الكلام عندي في هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة"(40). وإذا بحثنا بعمق في هذا القصد وجدنا أن نغمته ليست جديدة على الأدب العربي وقتئذ، فقد سبق للجاحظ أن خامرته نفس الرغبة وصاغها في قوله الشهير :"ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب. ولم أر غاية رواة الشعر إلا كل شعر فيه غريب أو كل معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج. ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل"(41) إلا أن ما يميز موقف قدامة عن موقف الجاحظ بخصوص رغبتهما في تأسيس علم حقيقي للشعر، هو أن الجاحظ أحس بهذا الفراغ الذي تعانيه الساحة الأدبية في تلك الفترة، وكان واعيا بضرورة تأسيس ذلك العلم لكنه ظل مجرد اقتراح، ولم يرق به إلى ما هو أبعد من مجرد الإحساس في حين أخرجه قدامه من باب الإحتمال إلى مجال التطبيق العملي الذي جسده "نقد الشعر"، نجد أن الرجل (أي قدامة بن جعفر) إزاء مشكلة تواجهه وتؤرقه وهي المشكلة الخاصة بتشكيل علم الشعر. وأن الرجل يسعى - قدر استطاعته ووسعه - إلى معالجة المشكلة بنحو يتخطى فيه نطاق البحث عن علم الشعر في كتابات غيره، أو لأقل أنه يسعى لإيجاد ما لم يجده الجاحظ" (42). وأكثر من هذا فإن قدامة في

40 - نفسه 15 .

41 - الجاحظ : البيان والتبيين 64/4 .

42 - قاسم المومني : الناقذ العربي بين ضرورة الاصالة ولزوم المعاصرة : مجلة كلية الآداب 1 . الدار البيضاء 86/3 ص 97 .

مشروعه سواء في جانبه النظري أو جانبه العملي كان منسجما مع طبيعة ما استجد في ثقافة عصره، أي القرن الرابع الهجري الذي شهد" أكثر من محاولة لإحصاء العلوم وتصنيفها"(43).

ومعلوم أن محاولات التصنيف والإحصاء لا تتأتى في أي مجال من المجالات المعرفية، إلا إذا ابتدأنا فيها بتحديد ماهية العلوم وتعريفها. وفي هذا تكمن جدية المشروع النقدي لدى قدامة بغض النظر عما إذا كان قد استفاد مباشرة أو غير مباشرة من الأصول اليونانية، فهو في محاولته تلك يقدم مشروعا يسعى كي يعي نفسه، ويبدو ذلك من خلال تحديده لمفهوم "نقد الشعر"، كما يسعى في الوقت ذاته ليعي موضوعه، أي مفهوم الشعر لذلك اقترح تعريفه الشهير على أنه : "قول موزون مقفى يدل على معنى"(44). وتتجسد مظاهر هذا الوعي بالمادة وموضوعها الذي تمدنا به المقدمة، من خلال التطبيق العملي الذي انتشر عبر فضاء متن الكتاب. وبذلك فإن مقدمة "نقد الشعر" تمثل نموذجا لخطاب المقدمة، تستمد أهميتها من كونها مشروعا وتطبيقا للمشروع.

II-3. مقدمة "عيار الشعر" لابن طباطبا العلوي

تلتقي مقدمة "عيار الشعر" لابن طباطبا العلوي مع مقدمة "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر، في كونهما تمثلان مستوى نظريا متكاملا لمشروع نقدي متميز، لم يكن غرضه الوقوف على شاعر

---

43 ـ جابر عصفور : مفهوم الشعر 19 .
44 ـ نقد الشعر 17 .

معين أو جماعة من الشعراء، بقصد الإنتصار أو التجريح. لكن المقدمتين كانتا تسعيان لوضع نظرية في الشعر العربي وسبل نقده. إلا أن ما يميز مقدمة ابن طباطبا ومشروعه النقدي بشكل عام، هو أن صاحبها ـ كما تدل على ذلك كتب الأخبار ـ [45] كان يجمع في ذات الوقت بين نظم الشعر ونقده. مما يجعله كناقد يستفيد ـ لامحالة ـ من قدرته، وموهبته كشاعر. ويضفي بالتالي على مقدمة مشروعه النقدي عامة طابعا تعليميا.

يبدو أن الظروف كانت مسيرة في وجه ابن طباطبا لإخراج مشروعه النقدي كما يرى بعض الباحثين : "والملاحظ أن ابن طباطبا إنما يعالج قضايا الشعر في عصره، دون أن يجد حرجا في ذلك، كما كان عليه حال النقد من قبل "[46]. لكن ذلك لا يعني أن مشروعه كان في أحسن أحواله. بل لقد كان يعيش هو الآخر محنته التي لا تقل خطورة عن محنة الشعر المحدث الذي تولى البحث في أصولها والأسباب الموصلة إلى حلها:"وستعثر في أشعار المولدين بعجائب استقادوها ممن تقدمهم ولطفوا في تناول أصولها منهم، ولبسوها على من بعدهم، وتكثروا بإبداعها، فسلمت لهم عند ادعائها للطيف سحرهم فيها وزخرفهم لمعانيها. والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم، لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح، وحيلة

45 ـ الفهرست لابن النديم 202 ـ معجم الأدب لياقوت الحجوي 143/17-156 .

46 ـ محمد خير شيخ موسى : فصول في النقد العربي وقضاياه 126 ـ جابر عصفور : مفهوم الشعر 23-24 .

لطيفة، وخلابة ساحرة. فإن أتوا بما يقصر عن معاني اولئك ولا يربي عليه، لم يتلق بالقبول، وكان كالمطرح المملول" [47]. وذلك أن الكتابة النقدية عند ابن طباطبا كانت محكومة بقانون العرض والطلب، وهو قانون بدأ يتسرب إلى التأليف العربي في تلك الفترة، وسيتخذ أشكالا وغايات متعددة، وفحوى هذا القانون ـ كما يلخصه عبد الفتاح كيليطو ـ هو أن "الكتابة تتم تنفيذا لطلب من سلطة، وسواء أكان هذا الطلب فعليا أم لا، فالمهم أن الكتاب يتوجه في النهاية إلى هذه السلطة على شكل إهداء" [48]. فابن طباطبا يكتب مشروعه استجابة لرغبة شخص ذي مكانة اجتماعية سامية يفهم من كلام ابن طباطبا عنه أنه وجه إليه خطابا يسأله فيه إطلاعه على علم الشعر والأسباب الموصلة لنظمه، فكان رد ابن طباطبا : "فهمت ـ حاطك الله ـ ما سألت أن أصفه لك من علم الشعر، والسبب الذي يتوصل به إلى نظمه، وتقريب ذلك على فهمك، والتأتي لتيسير ما عسر منه عليك، وأنا مبين ما سألت عنه، وفاتح ما يستغلق منه إن شاء الله تعالى" [49].

يطرح هذا النص أكثر من سؤال : فهل يتعلق الأمر بمجرد تقليد بدأ يطبع كتابة المقدمة ويشكل شرطا من شروط التأليف عند العرب. لأن ذلك سيتكرر في كثير من المقدمات التي سنأتي عليها ؟ أم أن الأمر يكشف عن كون المؤسسة النقدية سقطت،

47 ـ ابن طباطبا : عيار الشعر ت : زغلول سلام. ص46-47 .
48 ـ عبد الفتاح كيليطو : الحكاية والتاويل : 74 .
49 ـ عيار الشعر 41 .

شأن الشعر، في التكسب، كما وسمها بذلك أنور الجندي حين قال : "...ونخلص من ذلك إلى أن نقادنا القدماء، كانت ذهنيتهم الأدبية النقدية بلاطية، مساوقة لاتجاه الشعر المتكسب في رحاب السادة والكبراء، ومن أجل هذا نراهم يجارون الشعراء فيما اتجهوا إليه بشعرهم"(50). أم أن الأمر يتعلق بسيادة جو من المضايقات والتحاسد بين المؤلفين ورغبة بعضهم في الطعن أو السرقة، كما يرى عبد الفتاح كيليطو" ولم يكن نشر كتاب ليتم دون أن يجر على صاحبه بعض المضايقات.. نشر كتاب يعرض للطعن في مرحلة أولى، ثم للسرقة في مرحلة ثانية، فكيف السبيل إلى تفادي هذا الجور، وكيف الحفاظ على الكتاب من الطعن، أو السرقة ؟ أنجع وسيلة وأحسنها هي نسبته إلى مؤلف قديم حفه الزمن بالمجد والشرف" (51).

وإذا أقصينا جانبا الطرح الاول، بدليل أن المؤلفات العربية وغير العربية التي اهتمت بخطاب المقدمة لم يرد فيها ذكر لهذا الشرط، فإن الطرحين الثاني والثالث يصدق كل واحد منهما على فئة من المؤلفات فكون المؤسسة النقدية أضحت تكسبية شيء لا مناص من الإقرار به في بعض التجارب، وفي الرسالة الموضحة ما يزكي ذلك "وكانت للوزير أبي محمد الحسن بن محمد المهلبي، رحمه الله، هناك طليعة من طلائعه، وربيئة من ربايا مراعاته، وعين

---

50 ـ ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده . 167 .
51 ـ الكتابة والتناسخ 80 .

من عيونه مزكاة، فإنه كان ـ نضر الله وجهه ـ لما تثاقل أبو الطيب عن خدمته وأساء التوصل إلى استنزاله عن عرفه، ولم يوفق لاستمطار كفه، وكانت واكفة البنان، منهلة باللجين والعقيان، سامني هتك حريمه وتمزيق أديمه، ووكلني بتتبع عواره، وتصفح أشعاره، وإحواجه إلى مفارقة العراق واضطراره كراهية لمقامه بعد تناهيه ـ كان ـ في إدنائه وإكرامه. وحسبي علم الرئيس بحقيقة الحال وصدق المقال وتبرير الفعال، ونهوضي في حدثان الشبيبة بما قصرت عن جملته همم الرجال"(52). وأما كون الأمر يتعلق بتدنس جو التأليف وسيادة السرقة، فأمر أقرته مقدمة "أخبار أبي تمام" للصولي التي كشف فيها صاحبها عن محنته النفسية والاجتماعية المتمثلة في جور الزمان وجفاء السلطان وتغير الأحوال، وكذا محنته مع التأليف، وبخاصة حينما كان بصدد عمل أخبار جرير، قال :"بلغني أن قوما تضمنوا عملها على شريطتي خلافا علي وكيادا لي فأمسكت عن اتمامها امتحانا لصدقهم، فمات بعض وبقي آخرون، ولم تعمل حتى الآن"(53).

أما محنة صاحبنا ابن طباطبا العلوي، فهي من نوع آخر، إنها محنة صراع بين شخصيتين في شخص واحد. فهناك ابن طباطبا الشاعر الناقد، الذي أحس بجسامة محنة القصيدة المحدثة، وهذا ما يفرض عليه التحلل من قيود الهوى والميل المذهبي إن هو أراد أن

52 ـ الحاتمي : الرسالة الموضحة 2-3 .

53 ـ الصولي : أخبار أبي تمام ت : محمد عبده عزام. ص23 .

يتصدى لمعالجة هذه المحنة. وهناك ميله العلوي الذي لا يسمح له بتأسيس مشروعه النقدي بالشكل الذي يراه. وهذا ما جعل مشروعه يتسم بالتناقض وعدم الدقة ـ على الرغم من أهميته ـ وقد صور جابر عصفور هذا التناقض في الطريقة التي اختارها ابن طباطبا في حل أزمة الشعر المحدث إذ بدلا من أن ينفي تلك الأزمة بنفي الأسباب المؤدية لها، وهذا ما "يستلزم تقديم فهم مخالف لوظيفة الشاعر الاجتماعية ولعلاقته بالسلطة الحاكمة"[54]. اكتفى بالطريقة الثانية، وهي "معالجة المحنة معالجة فوقية، تركز على المعلول، أو تركز على النتيجة دون السبب، فتحل الأمر كله بتقديم مجموعة من وسائل التقنية، تحقق للشاعر مراعاة المقتضى الاجتماعي، كما تحقق له الجدة والتمييز"[55]. وبذلك يمكن أن نفهم كثيرا من مواقفه منها اعتباره الشعر صناعة قوامها الوقوف على ما كانت العرب تبني عليه شعرها، وهذا موقف "سلفي يرى الإبداع اكتمل في الماضي، وليس للشاعر إلا أن ينظر فيه، وينهج نهجه، وأنه جيد وحسن بمقدار ما يقترب من شعر الأوائل"[56]. ومنها كذلك وقوفه عند ظاهر العمل الشعري وعدم تمكنه من إدراك الصلة الداخلية بين موضوعات القصيدة واعتقاده أن أشتاتها لا يربطها سوى حسن التخلص، ومنها عدم تمييزه بين الشعر والنثر، إذ جعل كل نص شعري لا يظهر إلا بعد أن يمخض الشاعر ما يريد بناءه نثرا.

54 ـ مفهوم الشعر ص 23

55 ـ نفسه

56 ـ سعيد عدنان : الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي . 53 .

II-4 - مقدمة "أخبار أبي تمام" للصولي ومقدمة "الموازنة" للآمدي.

لقد دأب أحمد أمين في تقديمه لأخبار أبي تمام على ذكر كتاب "الموازنة" قبل "الأخبار" مما يحمل على الاعتقاد أن الأول سابق في التأليف يقول :"فألف الآمدي كتابه الموازنة بين أبي تمام والبحتري يتعصب فيه للبحتري من وراء حجاب وألف الصولي هذا الكتاب يتعصب فيه لأبي تمام ". وقد بلغ هذا الاعتقاد ذروته حين نرى أحمد أمين ينص في قول لاحق أن أخبار أبي تمام جاء ليهذب من سطوة الإنتصار للبحتري التي بسطها كتاب "الموازنة" يقول :"وقد مضى زمن كنا لا نسمع فيه إلا نغمة الإنتصار للبحتري من الآمدي فكان هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن ما يعدل هذه النغمة، ويلطف هذه الحدة فتتجاوب النغمتان وتعادل الكفتان ويكون أمام القاضي العادل أقوال الخصوم والمؤيدين في غير نقص" (57). لكن حين ندقق النظر في هذا القول نجد أن الأمر يتعلق بعصر أحمد أمين وجيله ؛ إذ ظهر فيهم ـ كما يبدو ـ كتاب "الموازنة" قبل كتاب "أخبار أبي تمام". وقد اعتمد محمد مندور أسلوب الناقدين معا ومنهجهما في التأليف وأدرك أن "الأخبار" سابق عن "الموازنة" فقال :"والذي لاشك فيه أن الآمدي لم

57 ـ من مقدمة أحمد أمين لكتاب أخبار أبي تمام للصولي : ى أ

يكتب كتابه أيام عنف الخصومة بين أنصار أبي تمام والبحتري وذلك أن أبا تمام توفي سنة 231 هـ والبحتري توفي سنة 248 هـ. والمعركة قد احتدت فيما يظهر بعد موتهما مباشرة حتى بلغت أقصاها اواخر القرن الثالث واوائل الرابع... فالصولي هو الذي يجب أن يتهم بالتعصب لأبي تمام، وأما الآمدي فقد جاء بعد أن كان الزمن قد هدأ من حدة الخصومة وكان الأدباء قد أخذوا في الإقتتال حول رجل آخر هو المتنبي. جاء الآمدي إذن بعد تراخي الزمن "[58]. وهذا رأي مفيد لأن أثر اللحظة في الكتابة والإبداع واضح، ولانستطيع التخلص منه، إذ مهما حاول الناقد أو المبدع أن يتحرر من تأثير لحظة الكتابة إلا وجد خيوطا رفيعة تجذبه إليها بوعي منه أو بدون وعي. وكذلك كان شأن الصولي. فأسلوبه في كتاب " الأخبار " يتسم بحرارة اللحظة النقدية وحدة الإشكالية التي يعالجها، مما يؤكد أن الكتاب ـ فعلا ـ أُلِّف في بداية عهد الصراع حول مذهب الطائيين، فيما يبدو أسلوب الآمدي النقدي في الموازنة أكثر هدوءا ورزانة وأوضح منهجا.

لاخلاف إذن، أن كتاب " أخبار أبي تمام" سابق في التأليف عن كتاب "الموازنة". وكل القرائن والدلائل اللفظية والمعنوية والسياقية والتاريخية تكشف ذلك. ولاخلاف كذلك في أنهما يتصديان لإشكالية نقدية واحدة، مما يسمح بإمكانية المحاورة النقدية من جهة ثانية. وهذا ماتبينه مقدمتا الكتابين من خلال توحد إشكالية التأليف.

---

58 ـ محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب 103 .

يطالع الدارس وهو بصدد مقدمة "أخبار أبي تمام" ومقدمة "الموازنة" القانون الذي سبق أن عرضنا له والمتمثل في كون الكتابة والتأليف يتمان وفقا لطلب من سلطة. وهذا الطلب إما أن يكون فعليا أو غير فعلي. فالصولي وجد نفسه ـ حسب زعمه ـ مدفوعا إلى التأليف بطلب من شخصية "مزاحم بن فاتك" التي يفهم من حديث الصولي عنها أنها شخصية ترقى إلى مرتبة الخلفاء أو الأعيان الذين عرفوا بصيانة العلم ومجالسة أهله وتشجيعهم، كما يتضح كذلك أن هذه المقدمة/الرسالة جاءت تكملة وتوسيعا لحوار دار بين الصولي ومزاحم حول ما لاحظاه من افتراق آراء الناس في أبي تمام حتى أن البعض منهم يوفيه حقه لدرجة الإفراط والغلو والبعض الآخر يعيبه ويطعن فيه وفي كثير من شعره، ويرمونه بالتقليد والإدعاء. ونظرا لأن رغبة الطرفين المتحاورين تلتقي عند ضرورة إخراج مؤلف يرد الإعتبار لشخص أبي تمام وشعره، فقد اضطلع الصولي بهذه المهمة التي انتدب إليها فقال :"فرأيت من سرورك بذلك وارتياحك إليه وصبابتك به، ما حداني على استقصائه لك والتعجيل به عليك، وإهدائه في رسالة إليك "(59). ويقول في موضع ثان :" ولم أجد سبيلا إلى مخالفتك ولا عدولا عن مشيئتك وإن كان هذا مما لا أجيب إليه غيرك، ولا أسمح به لسواك، لا ضنا بالعلم عن أهله، ولا كراهة لنشره وحمل من يستحقه له، لكن لما أنا كاشفه بعد ستره، وناشر له بعد طيه، مما أنا عالم به، وعدل فيه"(60).

---

59 ـ الصولي : "أخبار أبي تمام" ت : عبده عزام وآخرون 5 .
60 ـ نفسه 6 .

فالكتابة والتأليف النقديين يتمان ـ كما نرى ـ وفق طلب فعلي من شأنه أن يرعى المؤلَّف ويسمح بنشره، وخاصة في ظروف مثل ظروف الصولي التي تميزت بجور الزمان وجفاء السلطان وتغير الإخوان. لذلك يمكن القول إن "أخبار أبي تمام" كتب من وراء حجاب ينتصر فيه لأبي تمام، كما كتب الآمدي أيضا "الموازنة" من وراء حجاب ينتصر فيه للبحتري. فالآمدي نفسه يقدم لكتابه بما يشعر أنه كتب وفقا لطلب من شخص لم يعنيه بالاسم. ولكن يظهر أنه حثه وبعثه على تأليف الموازنة، يقول "هذا ما حثثت ـ أدام الله لك العز والتأييد والتوفيق والتسديد ـ عليه وبعثني على تقديمه من الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري في شعريهما"[61] فهل يتعلق الأمر بطلب فعلي أم أنه مجرد محاولة لمعارضة الصولي شكلا ومضمونا لإبراز مقدرته على الجدال والمحاججة والمناظرة التي كانت من سمة ذلك العصر ؟.

وإذا كنا لا نستبعد الرأي الثاني لما سنبينه في حينه من كون مقدمة الآمدي تحاور مقدمة الصولي، فإن الرأي الاول يجد مبرره في ما مر بنا من أن عملية التأليف والنشر في الثقافة القديمة لم تكن لتتم دون أن تجر على صاحبها بعض المضايقات، مما يعرض الكتاب للطعن ثم السرقة فلم يكن السبيل لتفادي هذه المشاحنات سوى اهدائه أو ادعاء أنه كتب بطلب من شخص ذي مكانة

---

61 ـ الآمدي : الموازنة 3/1 .

اجتماعية سامية، سواء كان هذا الطلب فعليا كما في كتاب "الصاحبي في فقه اللغة" الذي أهداه ابن فارس للصاحب بن عباد، وهو المعني بالعنوان. وكما في كتاب "الأغاني" للأصفهاني الذي أهداه صاحبه لسيف الدولة. أو غير فعلي كما في كتاب "عيار الشعر" لابن طباطبا و:الموازنة" للآمدي و"أخبار أبي تمام "للصولي، إذ يحوم الشك حول شخصية مزاحم بن فاتك التي لم نعثر لها عن ترجمة في كتب الآداب والأعلام.

لاشك أنه على مستوى الصياغة، تعتبر المقدمة/الرسالة أسلوبا متطورا في كتابة المقدمة، بالمقارنة مع المقدمة/الحوار. غير أنه إذا كانت الصياغة الأولى التي جسدتها مقدمة الصولي لا تثير كبير أشكال، نظرا لأن القارئ لا يتردد البتة في نسبتها ونسبة آرائها إلى الصولي، فإن الأمر يختلف كل الاختلاف في مقدمة الآمدي التي جاءت على شكل حوار ومناظرة بين طرفين متخاصمين أحدهما ينتصر لطريقة أبي تمام في الشعر والثاني ينتصر لطريقة البحتري. ومكمن هذا الخلاف أن الآمدي يزعم أنه سيكتفي في هذه المقدمة /الحوار بنقل ما "سمعه" من احتجاج هذين الخصمين، ولكأنه لا يتبنى آراء هذا الحوار، سواء في طرفه المؤيد أو طرفه المعارض". وأنا أبتدئ بذكر ما سمعته من احتجاج كل فرقة من أصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى، عند تخاصمهم في تفضيل أحدهما على الآخر وما ينعاه بعض على

بعض"[62] فهل بحق قيلت هذه المقدمة/الحوار على لسان هذين الفريقين أم أنها صياغة وأسلوبا وأفكارا من صنع الآمدي؟ وحتى إذا صحت أنها من صنع هذين المتحاورين فمن هما هذان الفريقان ؟.

لقد تعاقب الباحثون والدارسون أثناء تناولهم لهذه المقدمة على بحث أثر جدل علماء الكلام والفلاسفة عموما في فكر الآمدي، فأما إحسان عباس فيقول :"ولا نستبعد أن يكون الآمدي قد درس علم الكلام، غير أنه لم يتأثر به في النقد إلا تأثيرا شكليا، كما رأينا في صياغته للمقدمة على شكل حوار كلامي جدلي بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتري"[63]. وأما أحمد مطلوب فقد جعل قدرة الآمدي على إيراد هذه الحجج تقارب وتضارع صنيع الجاحظ في كتبه :"ويتضح في هذا القسم (أي المقدمة) قدرته على تخليص الآراء وإيراد الحجج ومناقضتها، وهو يذكر بما كان الجاحظ يفعله في كتبه حينما يدير نقاشا بين خصمين أو محتاجين"[64] على أن الذي يبدو جديرا بالبحث هو ما يلي :هل لنا أن نميل إلى تصديق الآمدي بأنه اكتفى بذكر ما سمعه من احتجاج الفريقين ؟ أم أنه تدخل في صياغة آرائهما معا حتى يتوحد الرأيان في صوت واحد هو صوت الآمدي ؟.

---

62 ـ نفسه 6/1 .
63 ـ تاريخ النقد الأدب عند العرب 172 ـ الاتجاهات الفلسفية في النقد 73 .
64 ـ أحمد مطلوب : اتجاهات النقد الأدبي . 213 ـ الفهرست 155 .

قد لا نجانب الصواب اذا سارعنا إلى القول إن صاحب أبي تمام في هذه المناظره هو الصولي ذاته وان صاحب البحتري هو الآمدي. وإذا علمنا أن المصادر قد خلت من ذكر خبر لاجتماع هذين الخصمين أو تحديدهما، فيبقى من المرجح أن الآمدي هو صاحب المقدمه، وهو الذي يتكلم بلسان الفريقين معا. وقد كان يستحضر و بل وينتقي من، آراء الصولي وأقواله ما يخدم طريقته ليبني عليها ردوده وحججه. وهذا ما يسمح بالقول إن مقدمه الصولي لأ خبار أبي تمام تعتبر رافدا من روافد خطاب الآمدي النقدي وبالتالي فإن مقدمه الآمدي للموازنه تدخل في علاقه امتصاص وتحوير وحوار نقدي مع متن الصولي[65]. بل إنها تتجاوز ذلك لتصهر كل تلك الآراء في صوت واحد هو صوت الامدي، وأبعد من ذلك فالمقدمة بكل أفكارها التي جاءت على لسان صاحب البحتري تمثل تكثيفا واختزالا لمتن الكتاب برمته، وهذه بعض الأمثلة التي توضح ذلك :

أ ـ أن الأبواب الثلاثة المكونة للبديع (الاستعارة، والجناس، والطباق) التي يتبناها البحتري في المقدمة، وكذا الشواهد الشعرية المستشهد بها عن كل باب من الأبواب المذكورة، هي ذاتها الموجودة في متن الكتاب[66]. فليس من باب المصادفة الغريبة أن

---

65 ـ أشار محمد زغلول سلام إلى ما يقرب هذا الاستنتاج بقوله : ‹‹ونحس ونحن نقرأ للآمدي فيما اورده من آراء أنصار أبي تمام أثار آراء الصولي . بل ماهي في الحقيقة إلا تلخيص لأقوال الصولي في أخبار أبي تمام›› تاريخ النقد الأدبي والبلاغة 231 .

66 ـ يقارن في ذلك ما جاء في مقدمة الموازنة 1/15-17 وما جاء في متن الكتاب من ص 261 إلى 292 .

تتطابق آراء صاحب البحتري في المقدمة مع آراء الآمدي في المتن تطابقا كليا ما لم يكن صاحب البحتري هذا هو الآمدي نفسه.

ب ـ انتقل صاحب البحتري بعد فراغه من بيان أبواب البديع إلى محور يتعلق بسوء نسج شعر أبي تمام وتعقيد نظمه ووحشي ألفاظه، وهي نفس الخطة والطريقة التي اتبعها في متن الكتاب.

ج ـ ان الحجة رقم 15 في مقدمة الموازنة، والمسندة إلى صاحب أبي تمام (أي الصولي)، إذا نحن تتبعنا أسلوبها وطريقة عرضها وكذا مضامينها وما تصدر عنه، لن نتردد في نسبتها إلى الآمدي ومن الغريب أن يردد صاحب أبي تمام هذا الموقف حين قال :"هذا في المعاني التي هي المقصد والمرمى والغرض"[67]. ثم نجد الموقف بنصه للآمدي في متن كتابه :"قد انتهيت الآن من الموازنة بينهما وكان الأحسن أن أوزان بين البيتين أو القطعتين، إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية، ولكن هذا لا يكاد يتفق مع اتفاق المعاني التي إليها المقصد وهي المرمى والغرض"[68].

وتكثر الأمثلة وتتعدد مما يؤكد أن صاحب البحتري ليس في حقيقة الأمر سوى الآمدي نفسه، بل إن صاحب أبي تمام كان متخيلا، IMAGINE وأن حضوره في المحاجة حضور مشروط ومحكوم بما تمليه طريقة الآمدي في عرض آرئه. وهذا ما يدل

67 ـ الموازنة 51/1 .
68 ـ نفسه 429/1 .

على أن المقدمة كما يرى أمجد الطرابلسي عبارة عن "حوار طويل بين البحتريين والتماميين متخيل من طرف الكاتب[69]. وبذلك يبطل الرأي الذي انفرد به كل من عبد القادر القط حين قال :"وبالرغم من أن شدة الجدل والتأثر بالفلسفة غير مفتقدين في الموازنة، فانهما ليسا سمتين بارزتين به، فيما عدا المقدمة التي لا تمثل وجهة نظر الآمدي"[70] ويبطل كذلك رأي محمود الربداوي حين قال :"بدأ الآمدي موازنته بعرض حجج الفريقين المتخاصمين حول أبي تمام والبحتري وعرضها كما يقذف بها أصحابها في المجالس وندوات المناظرات دون أن يكون هو طرفا من أطراف الخصومة، ومرجحا لرأي على آخر، وإنما كان بعمله هذا راصدا للحركة النقدية التي نشأت حول هذين الشاعرين فحسب، وكان مسجلا فقط لوجهات النظر النقدية فيها"[71]. والحق ـ كما أسلفنا ـ أن الآمدي لم يكن راصدا أو مسجلا فقط لوجهات نظرنقدية متباينة، بل كان طرفا فيها.

II-5- مقدمة "الوساطة بين المتنبي وخصومه" لعبد العزيز الجرجاني

يمثل كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" لعبد العزيز الجرجاني مرحلة متميزة في تاريخ التأليف النقدي عند العرب، نظرا لما عرف به مؤلفه من وضوح في الموقف الأدبي وانسجام في

69 ـ أمجد الطرابلسي : . La critique potique des arabes . P.193

70 ـ عبد القادر القط : مفهوم الشعر كما يصوره كتاب الموازنة للآمدي : 36 .

71 ـ محمود الربداوي : الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام 175-176 .

عناصر منهجه، وقد نعته زغلول سلام بأنه كان "موضوعيا حاول أن يناقش كثيرا من مشكلات النقد بطريقة علمية منهجية"[72] كما نعته إحسان عباس بأنه "رجل مصدق لأنه يحب أن يأخذ بأسباب النزاهة"[73] بل ذهب إلى اعتبار كتابه خاتمة مرحلة زاهرة في تاريخ النقد الأدبي وتتويجا لهذه المرحلة "[74].

والكتاب عموما عبارة عن رسالة كما يصرح بذلك الجرجاني[75]، وهي رسالة كما نرى مترابطة الأفكار يأخذ فيها كل جزء برقاب الآخر الذي يليه، فالمقدمة التي تمثل الجزء الاول من هذه الرسالة، تمتد من الصفحة 1 إلى الصفحة 48، وفيها : "يقرر القاضي الجرجاني موقفه من الأدب ونقده، وفي هذا الجزء جل النظريات النقدية التي جاء بها، واعتمد عليها"[76]. فهي بذلك تمثل الإطار النظري العام للخطاب النقدي لدى الجرجاني.

أما الجزء الثاني من هذه الرسالة، فيمتد من الصفحة 49 إلى الصفحة 71، وهو جزء انصرف فيه المؤلف إلى توظيف وتطبيق بعض ما ورد على مستوى الشعر العربي قديمه وحديثه، ضاربا المثل ببعض أعلامه مثل البحتري وأبي نواس وأبي تمام، وبذلك فإن هذا الجزء يمثل مستوى خاصا في الخطاب النقدي لدى الجرجاني.

---

72 ـ تاريخ النقد الأدبي والبلاغة 289 .
73 ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب . 315 .
74 ـ نفسه 23 .
75 ـ عبد العزيز الجرجاني : الوساطة ت : ابراهيم أبو الفضل ومحمد البحياوي. دار القلم. ص20 .
76 ـ د. محمود السمرة : القاضي الجرجاني الأديب الناقد. ص 113 .

وأخيرا هناك الجزء الثالث من الرسالة، الذي يمتد من الصفحة 72 إلى نهاية الكتاب، وفيه انصرف الجرجاني إلى شعر المتنبي بشكل أخص. وبذلك ترى هذا التدرج المنهجي من مستوى التنظير النقدي العام إلى المستوى الخاص فالأخص.

وإذا عدنا إلى المقدمة التي تشكل الجزء الاول من كتاب "الوساطة"، وجدناها تعكس لنا الطابع السجالي في الكتابة النقدية القديمة ـ التي قدمنا بعض نماذجه ـ كما أنها تعكس بذات الوقت بيئة النقد في فترتها، وتنهض بكشف ملامح إشكالية التأليف النقدي. ولابد لاستكناه خبايا هذه المقدمة وما تزخر به من استحضار أصوات أخرى تشكل طرفا مباشرا في هذا السجال النقدي. فحين يستهل الجرجاني مقدمته بقوله: "التفاضل ـ أطال الله بقاءك ـ داعية التنافس والتنافس سبب الحسد، وأهل النقص رجلان، رجل أتاه التقصير من قبله، وقعد به عن الكمال اختياره، فهو يساهم الفضلاء بطبعه، ويحنو على الفضل بقدر سهمة، وآخر رأى النقص ممتزجا بخلقته، ومؤتلا في تركيب فطرته، فاستشعر اليأس من زواله، وقصرت به الهمة عن انتقاله، فلجأ إلى حسد الأفاضل"(77).

نستشعر أن الجو النقدي كان مشحونا بأصوات تحسب على النقد وليست منه، لأن وجهتها لم تكن خالصة للنقد الأدبي من

77- الوساطة 1 .

حيث هو مؤسسة فاعلة ومتفاعلة، بل لقد تحول النقد الأدبي معها إلى مجال تتبارى فيه القرائح للتكسب طمعا في نيل الهبات والعطايا، ولذلك عجزت هذه الأصوات على أن تقدم تصورا نقديا متماسكا يسهم في إغناء التراث النقدي العربي، لأنها جميعها كانت مسخرة من دوائر حاكمة جندتها للنيل من المتنبي والتعريض به. فالحاتمي كتب رسالته " الموضحة" بايعاز من الوزير المهلبي : " سامني هتك حريمه وتمزيق أديمه، ووكلني بتتبع عواره وتصفح أشعاره وإحواجه لمفارقة العراق"[78].

أما ابن وكيع التنيسي، فقد يكون ألف كتابه "المنصف" لما ضاق درعا هو وطائفة من شعراء عصره بإقامة المتنبي بمصر، كما يزعم إحسان عباس من أن "الكتاب كان رد شاعر مغيظ عن طبقة من المتعصبين لأبي الطيب، إذ كانت إقامة المتنبي في مصر قد أوجدت حوله عددا من الأنصار والمعجبين وكان لهؤلاء أنفسهم تلامذة يدرسون شعر أبي الطيب، ويذهبون في الإعجاب به مذهبا بعيدا، حتى فضلوه على من تقدم من الشعراء"[79]. لكن هذا لاينفي أن يكون ابن وكيع قد استجاب في ذات الوقت لرغبة مبيتة لدى الوزير ابن حنزابة الذي يبدو أنه كاتب ابن وكيع في هذا الأمر، وهذا ما يدل عليه قوله في مستهل مقدمة "المنصف".. فإنه وصل إلي كتابك الجليل الموضع، اللطيف الموقع، تذكر فيه

78 ـ الرسالة الموضحة 2 .

79 ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب 294 - 295 .

إفراط طائفة من متأدبي عصرنا في مدح أبي الطيب المتنبي، وتقديمه، وتناهيهم في تعظيمه وتفخيمه[80]. وفي كلتا الحالتين نحن أمام ممارسة أبعد ماتكون عن النقد الأدبي، ولكن لامناص من استحضارها وغيرها من الممارسات التي نحت نفس المنحى، لأن ذلك يسهم في الإجابة عن إشكالية التأليف النقدي في تراث الجرجاني، التي تمدنا بالحقائق الآتية :

أ ـ أن كتاب الوساطة لم يكن طارئا على الممارسة النقدية القديمة، بل لقد توفرت له الشروط الذاتية والموضوعية التي غدته منهجا وخطة ودراسة.

ب ـ أن منهج الوساطة الذي وسم بأنه اعتدالي توسطي نابع من دافع أدبي محض، وأنه جاء رد فعل على الدوافع السياسية والشخصية التي وجهت مصنفات الخصوم.

ج ـ وهذان العنصران يتيحان إمكانية ترجيح تأخر ظهور "الوساطة" واعتباره تال لمصنفات الخصوم لاسابقا عليها، مما أعطى للخطاب النقدي لدى الجرجاني إمكانية امتصاص خطابات سابقة ومحاورتها.

والملاحظ أن المقدمة لم تكتف فقط بإحالتنا على أصوات خصوم المتنبي، ولكنها في ذات الوقت تنتظم أصواتا نقدية أخرى

80 ـ المنصف للسارق والمسروق منه 3 .

تمثلت في مناقشة آراء اللغويين والنحاة[81] التي كانت بمتابة تمهيد لمنهجه النقدي الذي بدت أولى معالمه الإجرائية من خلال موقفه من شعر الطائيين أبي تمام والبحتري، فهو يدين بتفضيل أبي تما م وتقديمه، ويراه "قبلة أصحاب المعاني، وقدوة أهل البديع"[82]. كما أنه يشيد بالبحتري لأنه "أقرب بنا عهدا، ونحن به أشد أنسا، وكلامه أليق بطباعنا وأشبه بعاداتنا"[83] وهو حين يفعل ذلك، فانما يحاول تقديم منهج نقدي بديل لما عرف من تعصب الصولي لأبي تمام، وانتصار الآمدى للبحتري. فالكتابة النقدية لدى الجرجاني بهذا المعنى منفتحة، وأن "أصوات هؤلاء المؤلفين تتردد في "الوساطة" اعتراضا على الشاعر واحتجاجا له أو عليه، وخصومة بين النقاد وحكومة. فالجرجاني لم يكن يتحدث في فراغ، بل كان يحاور ويداور، ليرد على أكبر نقاد القرن الرابع ومثقفيه ذوي المشارب والمناهج والدوافع المختلفة "[84].

81 ـ الوساطة 5-15 .

82 ـ نفسه 20 .

83 ـ نفسه 29 .

84 ـ محي الدين صبحي : نظرية الشعر العربي من خلال نقد المتنبي . 7 .

الخاتمة

ليست هذه الدراسة سوى محاولة متواضعة تسعى كي تكون لبنة جديدة في مسار الدراسة الأدبية. وتهدف إلى لفت الأنظار إلى موضوع عتبات النص الذي لفه النسيان بالرغم من أن الكتاب ـ أي كتاب ـ لا يمكن أن يقدم عاريا من نصوص العتبات ولا يمكنه بحال من الأحوال الفكاك من سلطتها الشكلية والمعرفية.

إن المقدمة في المؤلفات النقدية المدروسة، ونظرا لاعتناء أصحابها بإحكام صياغتها شكلا ومضمونا تعتبر وعاء معرفيا وإيديولوجيا يعكس ثقافة الناقد ورؤيته وموقفه من قضايا عصره.

ومعلوم أن القضايا النقدية التي تحفل بها هذه المقدمات لا تمثل سوى الجانب الظاهر والمعلن من هذه الرؤية وهذا الموقف. فيما أن المعايشة العميقة لفقرات المقدمة وعباراتها ودلالات اصطلاحاتها، هي التي تطلعنا على الجانب غير المعلن من هذه الرؤية وهذا الموقف. وفحواه أن وراء كل ذلك تختفي عقلية الناقد الأدبي المشبع بثقافة عصره اللغوية والفقهية والكلامية والفلسفية والمذهبية ... إلخ. مما يحتم علينا الاحتراس أثناء عملية القراءة والتفسير والتأويل.

إن المشروع النقدي الذي تتبدى ملامحه في خطاب المقدمة ما هو إلا جزء من مشروع فكري وحضاري عام، يسعى من خلاله هذا الناقد أو ذاك، إلى أن يجسد انخراطه في صلب إشكاليات عصره وإسهامه في تقديم إجابات ممكنة عنها. ولهذا تصبح عملية القراءة والتفسير والتأويل مشروطة بربط المستوى النقدي بهذا النسق المعرفي العام الذي تشكل المقدمة مدخله الحقيقي.

صدر عن أفريقيا الشرق
في النقد الأدبي

رشيد يحياوي	مقدمات في نظرية الأنواع الأدبية
رشيد يحياوي	الشعرية العربية (الأنواع والأغراض)
رشيد يحياوي	شعرية النوع الأدبي
رشيد يحياوي	الشعر العربي الحديث
د. محمد العمري	نظرية الأدب في القرن العشرين
ع. بن زيدان	كتابة التكريس والتغيير في المسرح المغربي
ادريس بلمليح	البنية الحكائية في رواية المعلم علي
م. أديب السلاوي	الشعر المغربي ـ مقاربة تاريخية (1830 = 1960)
محمد خرماش	النقد الأدبي الحديث في المغرب
ع. بومسهولي	الشعر والتأويل قراءة في شعر أدونيس
مونان ـ جونيت	البنيوية والنقد الأدبي
روفاتير	ترجمة محمد لقاح
كاظم جهاد	أدونيس منتحلا ـ دراسة : ما هو التناص
محمد سويرتي	النقد البنيوي والنص الروائي
	ج1 : المنهج البنيوي ـ البنية الشخصية
	ج2 : الزمن ـ الفضاء ـ السرد
عمر أوكان	لذة النص «أو مغامرة الكتابة لدى بارث»

عمر أوكان	مدخل لدراسة النص والسلطة
عمر أوكان	قراءة جديدة للبلاغة القديمة ـ ترجمة ـ
د. محمد العمري	البلاغة العربية أصولها وامتداداتها
فريد الزاهي	الحكاية والمتخيل ـ دراسات في السرد الروائي والقصصي
فانساف جوف	رولان بارث والأدب ـ ترجمة محمد سويرتي
عبد القادر الشاوي	الكتابة والوجود ـ السيرة الذاتية في المغرب
عبد الرحيم العلام	سؤال الحداثة في الرواية المغربية
سعاد العالمي	مفهوم الصورة عند ريجيس دوبري
د. محمد العمري	البلاغة والأسلوبية (ترجمة)
جان ڤان دايك	النص والسياق ترجمة عبد القادر قنيني
حسن أسعد نصر	النثر الأندلسي في عهدي الموحدين وبني الأحمر

تم الطبع بمطابع أفريقيـــا الشــــرق
159، مكرر شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
الهاتف : 25.95.04 / 25.98.13 الفاكس : 44.00.80

مدخل إلى عتبات النص

دراسة في مقدمات النقد العربي القديم

"مدخل إلى عتبات النص" كتاب يهتم بمجموع النصوص التي تسيج الكتاب أو المتن من عناوين ومقدمات وإهداءات وخاتمات وفهارس... وغيرها من بيانات النشر المعروفة، التي تشكل نصا موازيا لا يقل أهمية عن المتن الذي يحيط به، فتصير من ثم قراءتنا للمتن مشروطة بقراءة العتبات.

ونظرا لأن المقدمة تشكل مركز الثقل في موضوع عتبات النص، فإن الكتاب يسعى إلى تركيز القول فيها من خلال الوقوف على إشكالية التأليف باعتبارها محورا مركزيا في بناء المقدمة.

إن "مدخل الى عتبات النص" محاولة متواضعة لسد فراغ ظلت تعاني منه الدراسة الأدبية لفترات طويلة.



Malevich 1914
Musée d'Art Moderne, New York.

مكتبة الأدب المغربي

ISBN 9981-25-178-X
9 789981 251786